اقرأ

كمال بسيونى

عائشة بنت طلحة

دار المعارف بمصر

عائشة بنت طلحة

كمال بسيوني

عائشة بنت طلحة

اقرأ ١٤٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٠ – أول أغسطس ١٩٥٤

الإهداء

أستاذى الجليل الدكتور طه حسين

قرأتك فأحسنت قراءتك ، وفهمتك فأجدت فهمك ، وذقتك فاستمتعت بأدبك وفنك وعلمك استمتاعاً لا حد له .

فتقبل هذا الكتاب الذى هو منك ولك . وتقبل معه أصدق التحية وأعمق الود .

كمال بسيونى

مقدمة

بقلم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

سيدى الأستاذ الأديب

قرأت قصتك التى تصور فيها حياة عائشة بنت طلحة مرتين ولم يكن استمتاعى بالقراءة الثانية أقل من استمتاعى بالقراءة الأولى . فقد صورت فأحسنت التصوير واستقصيت فأحسنت الاستقصاء وأديت ذات نفسك إلى القراء فيما شاء لك الطبع الخصب والذوق المرهف من رصانة الأسلوب ودقة المعنى وجزالة اللفظ .

وأنت لم تصور حياة عائشة بنت طلحة وحدها وإنما صورت معها حياة طائفة من فتيان قريش وفتياتها فى ذلك العصر الذى أتيح فيه لقريش من الترف والثراء والسلطان ما لم يكن يخطر لها من قبل على بال وقد لاءمت فأحسنت الملاءمة بين التاريخ الواقع والخيال الحر فرددت ترف قريش خاصة وأهل الحجاز عامة إلى مصدره التاريخى الدقيق وهو ذلك القرار الذى اتخذه عثمان رحمه الله فأتاح لأهل الحجاز أن يملكوا أرضه ويستغلوها ويحققوا فيها من الإصلاح وحسن

الاستثمار ما لم يكن ينتظر ، لولا كثرة المال وكثرة الرقيق واستقرار الأمن وفراغ البال .

وأبحت للخيال مع ذلك أن يذهب مذاهبه المختلفة فى ابتكار الصور التى تقرب للناس حقائق هذا التاريخ . وعسى أن تكون قد انخدعت ببهرج الرواة وتزيينهم للقول وتكثرهم على الناس بما كانوا يطرفون به قراءهم وسامعيهم . وليس كل شىء يكتبه القدماء تاريخاً ولا كل ما يرويه الرواة صحيحاً . وأنت ترى المحدثين من كتاب القصص يضعون من هذا القصص ألواناً فيها قليل من حقائق التاريخ وكثير من مبتكرات الخيال ، وأنت نفسك قد عمدت إلى هذا النحو فى قصتك هذه فخيلت إلى قرائك أنك كنت تعيش مع أشخاص قصتك فتظهر من أمرهم على ما ظهر وما بطن وتسمع نجوى ضمائرهم وأحاديث نفوسهم . فلم لا تقدر أن القدماء من الرواة قد صنعوا نفس هذا الصنيع فيما تحدثوا به من أحاديث الحب والغزل وفيما عرضوا على الناس من دخائل الحياة الخاصة لبعض أعلام الرجال والنساء فقد كان من حقهم أن يتخيلوا كما أن من حقك أن تتخيل وأن يسرفوا على أشخاصهم فيما يبتكرون بهذا الخيال كما يفعل المحدثون . وكنت حرياً أن تذكر أن هذه الروايات عباسية وأنها تمس قوماً كانت سياسة

العباسيين تميل إلى انتقاصهم والغض منهم . فمصعب بن الزبير هو أخو عبد الله بن الزبير الذى استأثر بالخلافة لنفسه فى رقعة من رقاع الأرض الإسلامية من دون بنى هاشم وبنى أمية جميعاً . ومصعب نفسه قد آذى الشيعة فى العراق كما آذاهم أخوه فى الحجاز وزوجه عائشة هى بنت طلحة الذى شارك فى حرب الجمل وقتل فيها ، قتله أنصار علىّ فى بعض الروايات واغتاله مروان بن الحكم فى بعضها الآخر .

فالتكثر على ابن الزبير وأخيه وعلى طلحة وبنيه خصلة يجب أن نفترضها حين نستعرض ما دون من أحداث هذا العصر وطرائفه أيام بنى العباس .

وأخرى تأثرت فيها بالرواة القدماء إلى حد بعيد فهم كانوا يحققون ولا يعمدون إلى التلميح ولا يكتفون بالإشارة وإنما كانوا يصرحون فيسرفون فى التصريح على أنفسهم وعلى الناس ويسمون الأشياء بأسمائها يبتغون بذلك إطراف السامعين والقارئين وإثارتهم . وأنت قد حاولت التخلص من هذا فلم تبلغه إلا فى مشقة شاقة وعسر عسير ووضعت النقط على الياءات كما يقول الفرنسيون . وكان من الخير أن تترك وضعها لقرائك يضعونها إن شاءوا ويهملونها إن أحبوا .

ولست أخفى عليك أنى قد بحثت عن شخصيتك فى هذه

القصة وما كان ينبغى أن أبحث عنها وإنما كان ينبغى أن تفرض نفسها علىّ فرضاً ولكن هذه القصة هى فيما أظن أول عمل أدبى تلقى به الناس وما أشك فى أنهم سيرضون كما رضيت وسيجدون من المتعة مثل ما وجدت وسيقر هذا فى نفسك رضى وطمأنينة وسيشيع فيها شعوراً بالدعة والأمن. وسيحملك على أن تظهر نفسك كما هى لا تقنعها بهذا القناع تستعيره من ذلك الكاتب القديم أو هذا الكاتب الحديث.

فامض موفقاً إلى ما يسرت له من الإنتاج الأدبى الخصب ففى طبعك وذوقك وفنك ما هو خليق أن يفتح لك أبواباً من الإبداع والابتكار ما أشك أنك ستلجها وتنتهى منها إلى ما تحب وإلى ما نحب من إغناء الأدب الحديث وتنميته. كتب الله لك النجح فيما تحاول وأتاح لك الفوز بما تريد.

ولك أصدق تحياتى وأخلص شكرى.

٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٣ — طه حسين

١

لم يكن لأهل المدينة حديث فى هذا اليوم إلا هذا الاقتراح الخطير . الذى سمعوه من عثمان بن عفان ، ففرحوا به فرحاً شديداً . وابتهجوا له ابتهاجاً عظيما ، وهذا الاقتراح الذى اقترحه عثمان هو : أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث أقاموا من بلاد العرب ، فلا يقيم فى الأمصار إلا من كان له فى الإقامة فيها أرب . قال أهل المدينة وقد أخذهم الدهش حين سمعوا هذا الاقتراح : كيف تنقل إلينا ما أفاء الله علينا من الأرض ؟ . قال عثمان : نستبدل بما كان لكم فى العراق أو فى الأقاليم من الأرض أرضاً فى الحجاز أو فى غيرها من بلاد العرب . فإن فعلنا ذلك أقمتم فى بلادكم لم تنتقلوا عنها . وأقام معكم أهلكم وذوو أسبابكم . وتفرق الناس عن عثمان فرحين مبتهجين . لا يفكرون إلا فى هذا الاقتراح ، وفيما عسى أن يجر عليهم من نفع كثير وخير وفير .

يقول فريق منهم : الآن نستطيع أن نقيم فى بلادنا ، لا نتركها ، ولا ننتقل عنها إلى العراق أو الشام أو مصر .

ويقول فريق آخر ؛ ونستطيع أن نستصلح أرضنا ،

ونستثمرها . ونقوم عليها فى غير مشقة ولا كلفة ولا احتياج إلى السفر القاصد أو غير القاصد .

ويقول فريق ثالث : وإذا كنا سنحتاج إلى الأيدى العاملة لاستصلاح أرضنا ، فما أكثر الرقيق ، وما أيسر اجتلابه ، نجتلبه من الأقاليم المفتوحة أو الأقاليم التى تُفتح يوماً بعد يوم .

ويقول فريق رابع : ما أرى إلا أن الحجاز سيستحيل إلى جنة من أجمل جنات الأرض . وأخصبها ، وأحسنها ثمراً ، وأعودها على أهلها بالغنى ، وما يستتبعه الغنى من الترف والنعيم .

ويقول فريق خامس : وسيصبح الحجاز قطعة من فارس ، تقام فيه القصور الفخمة ، تحيط بها الحدائق الجميلة النضرة . وتملؤها الجوارى الفارسيات بأصواتهن العذبة ووجوههن المشرقة ونشاطهن العجيب ، غناءً وجمالا وحياة .

كان أهل المدينة فى هذا اليوم يتحدثون بهذه الأحاديث ، أو بأحاديث كهذه الأحاديث . ولكن أصحاب الثراء العريض كانوا يتحدثون أحاديث أخرى ؛ كانوا يتحدثون عن هذه الفرصة التى أتيحت لهم ليستغلوا أموالهم ويوظفوها فى الأعمال الكبرى . فقد كان عمر بن الخطاب قد احتبسهم فى المدينة ،

فكانوا يتجرون ، وكانت تجارتهم تغل عليهم مالا كثيراً سائلا ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يستغلوا هذا المال السائل ويوظفوه . فلما اقترح عثمان اقتراحه هذا الخطير ، لم يفكر هؤلاء فى أن يبيعوا أرضهم التى فى الأمصار ، ويشتروا بها أرضاً فى الحجاز حتى يقيموا فى أرض الآباء والأجداد ، فما يعنيهم أن يقيموا فى أرض الآباء والأجداد . وإنما الذى يعنيهم هو أن يستغلوا أموالهم ويوظفوها . وهم يعلمون أن أرض الأقاليم أخصب تربة ، وأكثر ثمرة ، وأيسر استغلالا من أرض الحجاز ، وإذن فليبيعوا أرض الآباء والأجداد ، وليشتروا بها أرضاً فى الأقاليم .

وكان طلحة بن عبيد الله تيمياً من رهط أبى بكر ، وكان فى جاهليته تاجراً . ولم يصرفه الإسلام عن تجارته ، وقد اجتمع له من تجارته كثير من المال السائل والجامد ، حتى أصبح من أصحاب الثروات الواسعة ، والأموال العريضة فى الحجاز . وكان قد اشترى عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبى أو من ورثتهم ، فلما فتح عثمان هذا الباب ، باع طلحة كل ما يملك من أسهم خيبر لمن شهد فتح العراق من أهل الحجاز ، بما يملكون هناك ، ثم اشترى بماله الكثير من بعض أهل الحجاز أرضهم فى العراق ، واشترى

من عثمان أرضاً يملكها فى العراق بأرض يملكها هو فى الحجاز . ويصبح طلحة ذات يوم أو يمسى ذات ليلة ، وإذا هو من أصحاب الملكيات الضخمة ، والإقطاعات الكبيرة فى العراق ، وإذا هو حديث الحجاز والعراق جميعاً ؛ يتحدثون عن ماله الكثير ، وجوده الوفير ، ويتحدثون عن بره بذوى قرابته من تيم ، وذوى مودته من قريش والأنصار ، ويتحدثون عن إسراعه لمعونة من يحتاج إلى المعونة ، ولأداء الدّين عمّن يثقل عليه الدين . ثم يتحدثون عن ثروته الواسعة العريضة بعد هذه النفقات الضخمة الكثيرة ، وكانت النساء يتحدثن عن زوجاته ، وما يحظين به من دعة ورخاء ، وما يستمتعن به من ترف ونعيم . يتحدثن عن أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وعن أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، وعن سعدى بنت عوف المرية ، ويتحدثن فيما يتحدثن بأن أم كلثوم هذه لم تلدها أمها حبيبة بنت خارجة إلا بعد موت أبيها أبى بكر ، وأن عمر بن الخطاب كان قد خطبها وهى جارية إلى أختها عائشة أم المؤمنين ، فأجابته عائشة إلى هذه الخطبة ، فبلغ أم كلثوم ذلك ، فأتت أختها عائشة ، فقالت لها : تنكحينى عمر ، يطعمنى الخشن من الطعام ؟ ؛ إنما أريد فتى يصبّ علىّ الدنيا صباً ، فوالله لئن فعلت ، لأذهبن وأصيحن عند قبر

رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص ؛ فقال لها : أنا أكفيك . فدخل على عمر ، فتحدث عنده ، ثم قال : يا أمير المؤمنين لو أنك تذكر التزويج ؟ قال عمر : فإني قد خطبت . قال عمرو بن العاص : ومن خطبت يا أمير المؤمنين ؟ . قال عمر : خطبتُ أم كلثوم بنت أبي بكر ، قال عمرو بن العاص : أما هذه فلا يا أمير المؤمنين ، ما أربك إلى جارية تنعى عليك الليل والنهار أباها ؟! قال عمر : عائشة أمرتك بهذا . ثم تركها فتزوجها طلحة . فسعدت عنده السعادة كلها ، ونعمت إلى جواره النعيم كله . وكانت النساء يتحدثن أيضاً عن ثروة طلحة ، هذه الثروة الواسعة العريضة التي ستئول من بعده إلى أبنائه محمد وعمران وموسى وعيسى ، وإلى ابنته أم إسحق ، وإلى هذا الجنين الذي تحمله في جوانحها أم كلثوم .

ويقبل طلحة على المدينة ذات يوم عائداً من العراق ، فلا يكاد يبلغ داره ، ويلج من بابها ، حتى ينكر من الدار ومن أهلها كل شيء ، فقد رأى جواريه فرحات مرحات ، قد أشرقت وجوههن ، وابتسمت ثغورهن ، وهن يلقينه مبتهجات النفوس ، منبسطات الأسارير ، فلا يكاد يدنو منهن ، حتى تثب إليه إحداهن وكأنها ترقص ، وتلقي إليه في صوت مبتهج

تشيع فيه الغبطة ، وتفيض منه البهجة : أبشر يا سيدى ، فلن تكون أبا لبنت واحدة منذ اليوم . قال طلحة وقد أشرق وجهه ، وافتر ثغره عن ابتسامة مضيئة : إذن فقد ولدتْ مولاتك أم كلثوم . قالت : نعم .

ويسرع طلحة إلى زوجه ، ويدنو من السرير مترفقاً ، ويرفع أستاره متلطفاً ، ثم ينظر إلى زوجه مهنئاً وداعياً ، ثم يمد بصره فى السرير ، ثم يرده إلى نفسه ، وقد امتلأ وجهه ابتساما وإشراقاً ، وهو يقول : شمس مضيئة وربّ محمد ، ذلك أنه رأى طفلة رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، على أنها ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تظهر فى أثوابها ولفائفها . ويمد طلحة بصره إلى الطفلة ثم يرده إلى نفسه ، ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن يقول : شمس مضيئة ورب محمد . ثم يأخذ الطفلة من جوار أمها ، حفياً بها ، متلطفاً لها ، يقول : لا تراعى يا ابنتى ، ثم يرفعها بين يديه فيقبلها ، ثم يضمها إلى صدره ، ويسعى بها مستأنياً ، والجوارى من حوله فرحات مرحات ، كل واحدة منهن ، تريد أن تأخذها منه ، ولكنه متشبث بها ، يقبلها ويضمها ويسعى بها ، وأم كلثوم تنظر إلى هذا كله ضاحكة مبتهجة ، ولكنها تعابثُ زوجها فتقول له : هات الطفلة ، فإنها لا تقوى على تقبيلك وضمك ،

وذهابك وإيابك ، ويضع طلحة الطفلة إلى جوار أمها ، ثم يجلس مسروراً محبوراً ، يختار لها اسما جميلا ملائماً ، وكل جارية من الجوارى تعرض ما يحلو لها من الأسماء ، ولكن أم كلثوم تقول لزوجها : ما رأيك فى أن نسميها باسم خالتها عائشة أم المؤمنين ؟ قال طلحة : لا أجد فى تسميتها بعائشة بأساً ، ولعلى أجد فيه شيئاً من الخير . فمن يدرى ؟ فلعلها أن تكون كعائشة رجاحة عقل ، ونفاذ بصيرة ، وحدة ذكاء ، وامتيازاً على سائر النساء .

٢

نامى . نامى ياعائشة . نامى يا ابنتى ، فإن أباك سيحضر مع الصبح .

قالت الطفلة لأمها : فإنك تقولين لى كل ليلة : إن أباك سيحضر مع الصبح . فمتى يقبل هذا الصبح الذى يحضر معه أبى ؟ . هنالك وَجَـمت الأم شيئاً، ولكنها تناولت الطفلة، فقبلتها ومسحت رأسها ، ثم حدقت فى وجهها فأطالت التحديق ثم ضمتها إليها ، ووضعت على خديها قبلتين ، لم تكد تفرغ منهما حتى انحدرت من عينيها دموع غزار ، لم تستطع أن

تحبسها ، ولكنها حاولت أن تخفيها على الطفلة ، حتى لا تفتح إلى قلبها الساذج ، ونفسها الحلوة ، باباً من أبواب الحزن ، حرام أن يفتح إليهما وهي في هذا الطور اللذيذ من الحياة .

وكان طلحة بن عبيد الله قد ترك أهله ، وخرج مع من خرج ، مطالباً بدم عثمان بن عفان ، وكانت أنباء الحروب تأتيهم منكرة مروعة . وكانوا من أجل ذلك في خوف متصل ، وقلق مضن ، وهمّ يغشى نفوسهم تغشية ، وإنهم لفي ما هم فيه من خوف وقلق وهم ، إذ يجيئهم النبأ ذات ليلة بأن طلحة قد صرع ، وأن الذي صرعه مروان بن الحكم ، رماه بسهم فأصابه فجعل الدم ينزف منه نزفاً ، وهو يقول : هذا سهم أرسله الله إليّ . اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . وتبكي نساء طلحة وينتحبن ، وتخف إليهن الجارات والجيران ، ثم يستبين الأمر قليلا قليلا ، فإذا طلحة لم يصرع وحده ، وإنما صرع معه ابنه محمد ، فيزددن بكاءً وانتحاباً . ثم لا يلبثن حتى يأتيهن نبأ آخر ، بأن الزبير بن العوام كان قد ترك المعركة ، وذهب إلى وادي السباع فاغتاله عمرو بن جرموز ، رآه نائماً هناك فقتله واحتز رأسه . فتزداد أم كلثوم بكاءً وانتحاباً ، فلم يكن الزبير إلا زوج أختها أسماء . وتقضي الأسرة كلها ليلة شاحبة يملؤها الحزن والبؤس والشقاء . فأما النساء ، ففيما هن فيه من بكاء متصل ،

ونحيب دائم ، ومن حولهن جاراتهن يصنعن صنيعهن . وأما الأبناء فقد انصرفوا إلى الرجال ، يتقبلون عزاءهم فى قوة وجلد . وأما أم إسحق ، فقد جلست مع النساء ، تبكى حينا وتجف دموعها حيناً آخر . وأما عائشة فلم تكن تفهم من هذا كله شيئاً ، وقد حاولت أن تسأل أختها عنه فأعرضت عنها إعراضاً وحاولت أن تسأل أمها ، فأخذتها أمها فقبلتها ، وجعلت تلاطفها بيدها تمسح بها خدها مرة ، وتجرى أصابعها فى شعرها مرة أخرى ، ثم ما لبثت الطفلة أن أغمضت عينيها فاحتواها النوم بلجته .

والأيام تمضى وتتبعها الليالى ، وأم كلثوم حريصة على أن تخفى عن ابنتها مصرع أبيها ، فما ينبغى لها فى مثل هذه السن أن تعرف الحرب ، أو تذوق آلامها ، أو تحس لذعها الذى يحرق القلب ويغرق العين . ولكن الطفلة حريصة على أن ترى أباها كما تعودت أن تراه ؛ فما ينبغى أن يغيب عنها هذه المدة الطويلة ، وما كانت الطفلة تعلم أن أباها قد خرج إلى غير رجعة ، ولو أنها علمت ذلك لاستراحت من السؤال عن عودته ، وأراحت أمها من الكذب عليها فى أن أباها سيعود مع الصبح .

فلما كانت هذه الليلة ، وسألت عائشة أمها عن عودة أبيها وأجابتها أمها بما تعودت أن تجيبها به ، من أن أباها

سيعود مع الصبح ، لم يرُق للطفلة هذا الجواب . وكأنها أحست أن أمها تكذب عليها ، أو تراوغها فى الجواب . فسألتها عن هذا الصبح الذى يعود معه أبوها . هنالك وجمت الأم وانهلت دموعها . ولكنها أشفقت على ابنتها أن تظهر من حزنها على شيء . فأخفت عليها دموعها كما أخفت عليها مصرع أبيها من قبل . وقد حاولت الأم أن تصرف الطفلة عن هذا السؤال الغريب ، ولكنها ألحت فيه ، وصممت عليه . فأجابتها الأم : إن أباها عائد مع الصبح حين ينتهى من أعماله فى التجارة والزراعة . وقد كانت الطفلة تعلم حقاً أن أباها من هؤلاء التجار الأغنياء أصحاب الثروة الضخمة والمال العريض ، وكانت الطفلة تعلم حقاً أن أباها من أصحاب الضياع الواسعة والإقطاعات الكبيرة فى العراق ، ويظهر أن الطفلة قد اقتنعت بهذا الجواب . وابتدأ النوم يداعبها ، ويمد ذراعيه إليها . وأطبقت الفتاة جفنيها ، واندفعت أمامها ، فاشتملت عليها أمواج النوم كما اشتملت على غيرها من الناس والأشياء .

٣

وأنفقت عائشة بين أهلها ولداتها أعواماً وأعواماً ، لم تلق فيها بأساً ، ولم تشك فيها عناء ، وإنما عرفت الترف والنعيم ، وما يستتبعه الترف والنعيم من حياة راضية وعيش موفور . ويجب أن نسجل أن التاريخ فى ذلك الوقت كان مشغولا عن عائشة وأهلها ولداتها . بل كان مشغولا عن الجزيرة العربية كلها ، بهذه الأحداث التى تحدث فى الشام ، وبهذه الأحداث التى تحدث فى العراق . كان مشغولا بهذه الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى الشام ، وجعلت تبنى نفسها ، وتوطد أركانها . وكان مشغولا بهذه الأحزاب السياسية المعارضة التى قامت تجاهد الأمويين وتناضلهم ، والتى اتخذت العراق مركزاً لجهادها ونضالها . وما ذا عسى أن يصنع التاريخ بعائشة وأهلها ولداتها ؟ بل ماذا عسى أن يصنع التاريخ بالبلاد العربية ؟ وقد انتقل مركز الحكم منها إلى الشام ، وانتقل مركز المعارضة إلى العراق ، وانصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك فى الحياة العامة . غفل التاريخ إذن عن عائشة ، ولم يحفل بها ، ولم يلتفت إليها ولم يصحبها فى حياتها الوادعة . ولم يسجل لهوها

وعبثها حين كانت طفلة فى أول ليل الطفولة ، تخلو إلى نفسها الساعات الطوال ، فتتحدث إلى الحائط كما تتحدث أمها إلى زائراتها . وتبعث فى لُعبها التى بين يديها روحاً قوياً ، وتسبغ عليها شخصية ، وإذا هذه اللعب ليست لعباً ، وإنما هى أشخاص رجال ونساء وفتيان وفتيات . وهى بينهم تذهب وتجيء ، وتصل الأحاديث مرة فى لهو وعبث ، ومرة أخرى فى غيظ وغضب ، ومرة ثالثة فى هدوء واطمئنان . وأمها تنظر إلى هذا كله ، وتستمع إلى هذا كله ، والطفلة عنها لاهية غافلة ، فتجد الأم فى هذا كله متعة لنفسها وقرة لعينها .

وغفل التاريخ عن عائشة فلم يسجل أحلامها وآمالها وغرورها اللذيذ حين كانت فتاة فى آخر ليل الطفولة وأول فجر الشباب قد أخذت نفسها تتفتح للحياة ، وتبسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة ، وتحاول أن تعرف نفسها وأن ترى صورتها فى غير عين من عيون الشباب ، هذه العيون التى ترمقها مسرعة ثم تعود إليها فتطيل النظر إليها قليلا ، ثم تعود إليها مرة أخرى ، فتثبت فى وجهها لا تكاد تنصرف عنه . وغفل التاريخ عن عائشة فلم يسجل أحاديثها المختلفة ، حين كانت تجلس إلى لداتها ، وأترابها ، فتذكر كل واحدة منهن كثيراً من شئونها الظاهرة والمستورة ، وتتحدث كل واحدة منهن بأحاديث نفسها ،

وما يضيق به صدرها من الخواطر والهموم ، أو ما تفيض به نفسها من ألوان الغبطة والابتهاج . لذيذة جداً أحاديث الفتيات حين يخلون إلى أنفسهن . ولذيذة جداً صورة الفتاة حين تتفتح نفسها للحياة ، وترى قلبها الفارغ يريد أن يمتلىء ، ونفسها الساكنة تريد أن تنشط ، وملكاتها المعطلة تريد أن تعمل ، وإذا هي تحس شوقاً إلى شيء جديد ، تلمحه ولا تتبينه ، وتشعر به ولا تحققه ، فهي حائرة هائمة مشوقة ، ولكنها لا تعرف لهذه الحيرة مصدراً ، ولا لهذا الهيام موضوعاً ، ولا لهذا الشوق غاية . وإذا هي تلتمس لنفسها من هذا كله مخرجاً ، ولا تجده إلا في معرفة جديدة لصديق جديد .

غفل التاريخ عن هذا كله ، حتى كان يوم أكره التاريخ فيه على أن يلتفت إلى عائشة ، ولدات عائشة ، وأتراب عائشة ، وعلى أن يسجل اليسير من أمرهن والخطير ، في ذلك اليوم نظر التاريخ ، فإذا فتيان قريش الذين كانوا أهون شأناً وأيسر خطراً من أن يمنحهم عنايته ، والذين كانوا قد انصرفوا عن الاشتراك في الحياة العامة ، وفرغوا للحياة الخاصة ، ثم كانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفيء الذي أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ، ويمثلون الأرستقراطية العربية ، ثم كان الخلفاء يدرون عليهم الأموال ، ويوسعون

عليهم فى العطاء ، مراعاة لمكانتهم واصطناعاً لهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية .

نظر التاريخ إلى هؤلاء الفتيان ، فرآهم يلهون ويسرفون فى اللهو ، ويتهالكون على اللذة ، فلم يحفل بهم أول الأمر ، ولكنه لا يكاد يستمع إليهم ، حتى يضطر إلى أن يتتبع خطواتهم ، ليسجل آثار عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة ، ويسجل أخبار الأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة ، ويسجل غناء هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاج التى نشأت حولهم . ويسجل آخر الأمر أحاديث أولئك وهؤلاء مع طائفة من النساء العربيات المترفات ، اللائى كن ينفقن حياتهن فى الدعة والنعمة ، واللهو والدعابة والعبث والفكاهة ، وفى مقدمة هؤلاء النساء سكينة بنت الحسين ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، وزينب بنت موسى الجمحى ، وهند بنت الحارث المرى ، والثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . وعلى رأس هؤلاء جميعاً عائشة بنت طلحة .

٤

ولو أن التاريخ التفت إلى عائشة وهى فى ليل الطفولة وأول فجر الشباب لأعطانا عنها صورة واضحة جلية ، فعرفنا شيئاً كثيراً عن حياتها ، وحياة أسرتها . وأكبر الظن أن الأسرة قد تفرقت بعد موت طلحة ، فأما الأبناء فقد انصرف كل واحد منهم إلى نفسه يبنى بيتاً وينشئ أسرة . وأما أم إسحق ، فقد تزوجت من الحسن بن على بن أبى طالب . فكانت سيئة العشرة معه ، كثيرة المصارمة له ، حتى إنه كان يقول عنها : والله لربما حملت ووضعت ، وهى مصارمة لى لا تكلمنى . وأما النساء فقد تزوجت منهن من تزوجت ، وماتت منهن من ماتت . وأكبر الظن أن أم كلثوم كانت قد ماتت ، إذ لم يحدثنا عنها التاريخ بعد موت طلحة بشئ ، وقد عرضتْ لعائشة أحداث منها ما يرضى ويسر ، ومنها ما يحزن ويسوء ، فلم نسمع لأمها صوتاً ولم نجد لها ذكراً ، وليس من شك فى أن عائشة قد جزعت لموت أمها أشد الجزع ، وهلعت أكبر الهلع ، ولكن أى شىء يبقى على الأيام ؟ . وقد ذهبت الأيام بجزع عائشة وهلعها ، كما ذهبت بحياة أبيها ، وكما ذهبت

بحياة أمها . وتنفق عائشة أيامها ولياليها كما تنفق لداتها وأترابها أيامهن ولياليهن فى اللهو والعبث ، والدعابة والفكاهة ، وما تستتبعه هذه الحياة من صلات بين هذا الفتى أو ذاك من فتيان قريش ، نعم لم يحدثنا التاريخ عن فتى بعينه كان له مع عائشة شأن أو شئون . ولكن ليس معنى هذا أن عائشة لم تكن تعرف أحداً من فتيان قريش ؛ فلم تكن عائشة بدعاً من فتيات مكة أو المدينة ، وهؤلاء الفتيات كن يتهالكن على الفتيان . وكانت كل واحدة منهن تتخذ لها صديقاً ، تحبه وتؤثره ، وتقضى معه اللحظات القصار أو الطوال ، فتتحدث إليه وتستمع له ، وتجد فى هذا كله لذة ومتاعاً . ولست أنا الذى أدعى ذلك أو أفترضه افتراضاً ، أو أتخيله تخيلا ، أو أتكلفه تكلفاً ، فأنا أستغفرك من التكلف والتزيد ، والادعاء والافتراض . وإنما التاريخ نفسه هو الذى يحدثنا بذلك ، ويستطيع من شاء أن يقرأ الأغانى وغير الأغانى من كتب الأدب ، فسيجد أخبار هؤلاء الفتيات ساذجة حلوة ، تثير فى نفسه كثيراً من الخواطر والمعانى والعواطف . وسيجد شاعراً ظريفاً بخيلا ظهر أيام عمر بن عبد العزيز ، هو الدارمى المكى ، وسيجد أن متفتيات[1] أهل مكة كان لا يطيب لهن متنزه

---

(١) وصف من تفتت الجارية إذا راهقت فخدرت ، ومنعت من اللعب مع الصبيان .

إلا به ، فاجتمع – ذات يوم – جماعة منهن فى متنزه لهن ، وفيهن صديقة له – وكل واحدة منهن قد واعدت هواها[١] فخرجن حتى أتين الجحفة[٢] وهو معهن ، فقال بعضهن لبعض كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال من الدارمىّ ؟ فإنا إنْ فعلنا قطعنا فى الأرض[٣] . قالت لهن صاحبته – وهى أعلم الناس ببخله – : أنا أكفيكنه . قلن : إنا نريد ألا يلومنا . فقالت : علىّ أن ينصرف حامداً ، فأتته فقالت له : إنا قد تفلنا[٤] ، فاجلب لنا طيباً . وينصرف الدارمى كالسهم ، يُريهن أنه ذاهب ليجلب لهن الطيب ، وهو هارب منهن فى حقيقة الأمر ، حتى لا يتكلف لهن شيئاً ، ومن يدرى ؟ فلعله لم يهرب منهن ، وإنما عرف قصدهن وعرف أنهن لم يتفلن ، ولسن فى حاجة إلى الطيب ، ولا إلى شىء يشبه الطيب ، وإنما هن فى أشد الحاجة إلى أن يخلون إلى أحبابهن ، فيظهرن لهم نفوسهن كما هى ، وقلوبهن كما هى . فآثر الدارمى من أجل هذا أن يتركهن ، وألا يكون سبباً من

(١) من تهواه .

(٢) مكان قرب مكة .

(٣) أى يمزق أعراضهن ، وينشر ذلك فى الأرض بين الناس .

(٤) تفل كفرح : تغيرت رائحته لطول عهده بترك الطيب .

أسباب الضيق أو تعكير الصفو أو تكدير المزاج . ومهما يكن من شيء فقد انصرف الدارمى ، واستمتعت كل واحدة منهن بهواها ، ونعمت به ، كأحسن ما يكون الاستمتاع والنعيم .

إذن فعائشة كانت تجلس إلى الفتيان وتتحدث إليهم وتأنس بهم ، ومن يدرى ؟ فلعل عائشة نظرت إلى فتى منهم وداعبت الأحلام حين نظرت إليه ، ولعلها أطالت النظر وأطالت مداعبة الأحلام ، ولعلها كانت تنتظر أن يقبل عليها هذا الفتى فيخطفها من الحياة ذات مساء ، ويرتفع بها إلى جو بعيد جداً فى السماء ، فتعيش معه عيشة راضية ، وتسعد به سعادة موفورة . ولكن الغريب أن هذا الفتى أو غيره من الذين يمثلون أحلام عائشة وآمالها ، لم يقبل عليها ، ولم يَسْعَ إليها . ولعله كان ينتظر الوقت الملائم والفرصة السانحة ، فسبقه إلى هذا الوقت ، وانتهز من دونه هذه الفرصة فتى آخر ، ليس بينه وبين أحلام عائشة وآمالها صلة ولا سبب ، لا يروقها منظره ، ولا يعجبها حديثه ، ولا تميل إلى الحياة معه ، بل لا تميل إلى لقائه ، والتحدث إليه ، وكثيراً ما كان يلقاها ويتحدث إليها فكانت تلقاه بوجه مُشيح ، وتسمع له بأذن معرضة . حتى اضطرت خالتها عائشة أم المؤمنين ، وقد أقبل عليهما ذات يوم ، فرأت منها ذلك ، أن تقول لها : ما هكذا

يكون لقاء ابن خالك يا عائشة ؟ لقد لاحظتُ أن وجهك لم يهش له حين جاء ، وأن صوتك لم يرتفع بالسلام عليه حين ألقى تحيته وجلس . وإنما رددت عليه تحية فاترة ، ومضيت معى فى الحديث ، كأنك لا تلقين إلى هذا الطارئ بالا .
ومن هذا الطارئ ؟ إنه عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، فتى تيم ، وزينة قريش ، وعز البطحاء ، وإنه بعد ذلك ابن خالك ، فأيسر حقه عليك ألا يرى منك إلا وجهاً مشرقاً وثغراً باسما ، ونفساً راضية ، وقلباً مطمئناً يملؤه الحب والوفاء ، ويفيض منه العطف والحنان . وأرادت أن تسترسل فى الحديث فقاطعها عبد الله قائلا : شيئاً من الرفق يا عمتى . إنما هو حياء العذارى ، يدفعها كما يدفع غيرها إلى ما ترين وإلى أكثر مما ترين . كل هذا وعائشة بنت طلحة ساهمة واجمة ، لا ترد ولا تجيب ، وإنما تمعن فى إعراض يملؤه السخط والازدراء، ويصدر عن نفس شديدة الكبرياء . ومن الغريب أن عبد الله بعد هذا كله كان يتردد على عائشة . وكان يجد فى إعراضها عنه ونفورها منه وزهدها فيه ، ما يحببه فيها ويقربه منها ويدفعه إليها . ويقبل عليها ذات يوم فيحدثها عن حبه الذى لا يقف عند غاية ، ولا ينتهى إلى أمد ، ويحدثها فى رغبته فى أن تكون له زوجاً ، وأنه ابن خالها ، فهو أحق الناس بها ، ولكن عائشة

تؤثر الصمت فتخرج به عن لا ونعم كما يقول بشار . وتقبل عليها خالتها عائشة أم المؤمنين ذات يوم فتخوض معها فى ألوان مختلفة من الحديث . ثم تقول لها : إن ابن خالك عبد الله قد خطبك إلىّ . وإنى قد وافقتُ على هذه الخطبة ، ولم يبق إلا أن تهيئى لها نفسك ، وتأخذى فى أسبابها . وتبكى عائشة وتنتحب ، ولكن خالتها تضمها إليها ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب وتقول لها : إنا نريد أن نهيئك لما ينبغى لشبابك من الحياة الباسمة المبتهجة ، حتى تنعمى بالشباب ، وتذوقى لذاته كلها ، وتستمتعى بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة . قالت عائشة فى صوت يخنقه البكاء ويبله الدمع : بل إنكم تدفعوننى إلى حياة أكرهها ، فتملئون حياتى بالهموم والآلام ، وتعرضوننى للحزن والبؤس والشقاء .

٥

واستقبلت عائشة حياتها مع عبد الله مبغضة له أشد البغض ، ضيقة به أشد الضيق ، لا تستطيع أن تراه ، ولا أن تسمعه دون أن تنقبض نفسها أشد الانقباض . وإنها لتكون جالسة إلى صديقاتها تتحدث إليهن ، ويتحدثن إليها ، وهى مشرقة الوجه

باسمة الثغر مبتهجة القلب راضية النفس ؛ فإذا قيل لها : إن زوجك قد جاء ، قطبت ، وظهرت آية الغضب فى وجهها قوية حادة ، فيظلم وجهها بعد إشراق ، ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير من عينيها شرر مخيف ، وإذا صديقاتها يأخذهن شيء من الدهش ، لا يلبث أن يستحيل إلى وجوم متصل ، وذهول غريب .

وليس من شك فى أن عبد الله قد استقبل بغضها له ، وضيقها به ، ونفورها منه ، صابراً أول الأمر ؛ فقد كان يؤثرها بحب لم يجده زوج لزوجه قط ، وكان يكفيه منها أنه يستطيع أن يدنو منها متى شاء ، فيلاطفها ويداعبها ، حتى تلين وتدين . ثم لا يزال بها حتى يسحرها سحراً ، ويختلب قلبها ولبها اختلاباً ، ويرقى بها إلى أقصى ما تستطيع أن ترقى إليه من درجات السعادة والبهجة واللذة والنعيم . ولكن لكل شيء غاية يقف عندها ، وأمد ينتهى إليه ، وقد بلغ صبر عبد الله أقصاه ، وانتهى إلى غايته ، ولم يلبث أن ضاق بعائشة أشد الضيق وسخط عليها أشد السخط ، وود لو يقطع ما بينه وبينها من الأسباب ، ولكنه لم يكن ليستطيع ذلك ؛ لأنه يحبها أشد الحب ، ويؤثرها أعظم الإيثار ، ويجد فيها متعة نفسه ، وقرة عينه ، وبهجة حواسه . وقد كان من أجل ذلك منغص الحياة ، قلق التفكير .

ولكنه كان يجاهد نفسه ، ويخفى أمره ، ويتكلف الرضا ، ويتكلف الابتسام ، وقد يتكلف الضحك ، والضحك العريض ، وقد يقبل على اللهو مع رفقائه فيسرف على نفسه وعليهم فيه ، يريد أن ينسى ، ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، فيمضى فى اللهو . ليخيل إلى من حوله أنه سعيد موفور .

ويظهر أن عبد الله قد استطاع أول الأمر أن يخدع الناس وأن يخيل إليهم أنه أرضى الناس عن الحياة وأسعدهم بها . وآية ذلك أنهم كانوا ينظرون إليه فى كثير من الحسد ، وكانوا يتحدثون عن جمال عائشة الفاتن ، وحسنها الذى يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب ، ثم يتحدثون عن سعادته بها واستمتاعه بالحياة إلى جوارها ، ثم يتمنون آخر الأمر لو أتيح لهم مثل ما أتيح له من حياة ناعمة راضية . وعيش باسم هادئ مطمئن .

على أنهم ما لبثوا أن عرفوا حقيقة الأمر ، وعلموا أن عبد الله كان يخدعهم عن نفسه ، وتحدثوا بما يضطرب نفسه من قلق ، . وما يملأ قلبه من حزن ، فرثوا له أشد الرثاء ، وعطفوا عليه أكبر العطف . ومن ذا الذى لا يرثى لفتى تقسو عليه زوجه أشد القسوة ، وتعنف به أكبر العنف ، وتأبى عليه إباءً يملأ نفسه يأساً وقنوطاً ؟ ! ومن ذا الذى لا يعطف على فتى

لا تحتفى به زوجه ، ولا تتلطف له ، ولا تمنحه ابتسامة ، ولا تهدى إليه نظرة فيها شىء من رفق . وإنما هى عنيفة دائماً ، نافرة دائماً ، جامحة دائماً ، إلا فى هذه الساعات القصار التى يذوقان فيها معاً هذه السعادة الغريبة النادرة ؟ ؛ وهو مع ذلك يحبها ويبر بها ويعطف عليها ويمنحها ما يستطيع أن يمنحها من البر والحنان . فكان خليقاً أن يظفر منها بعد هذا كله بالوجه المشرق والثغر الباسم والنفس الراضية ، ولكنه لم يكن يظفر منها إلا بالوجه المظلم والثغر العابس والنفس الساخطة .

وكان هذا كله يفسد جو المنزل ، ويجعله خانقاً منهكاً للقوى ، فكان عبد الله ينفق وقته بين لداته وأترابه بعيداً عن المنزل ، ولكن من الحق أنه كان ينفق وقته بين لداته وأترابه مفكراً فيها محباً لها مؤثراً لها بخير ما يستطيع أن يؤثرها به من الحب والإخلاص . وكانت هى تجد سعادتها فى بعده عنها . فكانت تنصرف إلى رفيقاتها ، يتحدثن فيما كانت تتحدث فيه نساء الحجاز عامة فى ذلك الوقت . وكانت نساء الحجاز يتحدثن عن هؤلاء الفتيان الذين ظهروا فى مكة والمدينة ، ينفقون حياتهم فى الغزل العابث الماجن ، أو هؤلاء الفتيان الذين ظهروا فى البادية ينفقون حياتهم فى الغزل العفيف العنيف البرىء . وإن عائشة لتخلو إلى نفسها فتستعرض عدداً غير قليل من هؤلاء الفتيان ،

وترى نفسها تتنقل بينهم ، كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر ، لا تكاد تلم بهذه الزهرة حتى تنتقل منها إلى زهرة أخرى ، ثم إلى زهرة ثالثة . وعلى هذا النحو . وإنها لتتنقل بينهم فتقف عند واحد منهم ، لا تكاد تعدوه إلى غيره . وإنها لتنفق معه الساعات الطوال مفكرة فيه ، هائمة به ، مشوقة إليه ، ويقبل موسم الحج ، ويستعد الناس لأداء الفريضة ، وتكون عائشة فيمن يستعد . وتشرق الشمس ذات يوم على أهل المدينة ، ويرتفع الضحى ، ويتحدث الناس بأن عائشة بنت طلحة قد خرجت إلى مكة تريد أن تحج ، وإنها لتريد — فى حقيقة الأمر — أن تلقى هذا الفتى .

٦

وكان عمر بن أبى ربيعة فتى مخزوميًّا من قريش . وكان مشرق الوجه باسم الثغر عذب الحديث لطيف الحركة . وكان ذكى القلب حاد الشعور رقيق الحس . وكان عالى المكانة رفيع الحسب ضخم الثروة ، وكانت السياسة الأموية قد وقفت منه ومن غيره من شباب قريش ومترفى الحجاز هذا الموقف الغريب ؛ فكانت تكرمهم إكراماً ماديا ، تدر عليهم الأموال ،

وتوسع عليهم فى العطاء ، وكانت فى الوقت نفسه تعاملهم معاملة قاسية ، فتمسكهم بمعزل عن الحياة السياسية العاملة ، وتقصرهم فى الحجاز على اللهو والترف . فانقطع عمر للحب والغزل ، وانصرف إلى الحياة يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة . ومضى فى حياة المترفين الوادعين ، فلم يتصل بحزب من الأحزاب ، ولم يتخذ شعره وسيلة إلى الخصومات السياسية . وإنما ترك السياسة لأصحابها ، وانصرف إلى اللهو ما أتيحت له أسباب اللهو ووسائله . ولكنه مع ذلك كان مقيداً بشرفه ومكانته ، وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية ، فكان يلهو بمقدار ، وكان يعبث بمقدار أيضاً . وكانت ظروف حياته تكرهه على الاقتصاد فى اللهو ، والتوسط فى العبث ؛ لأنه لم يكد يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها ، وأسرف فى ذكرها . وقد ظفر من أجل ذلك بإجماع الناس على إجلاله وإكباره ، فلم يغل الناس فى لومه ، ولم يتشددوا فى النعى عليه ، كما غلوا فى لوم غيره وتشددوا فى النعى عليه ، ومع ذلك فقد كان أصحاب التقى والمروءة يدعونه بالفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى ، وكانت النساء يداعبنه بهذه الصفة وربما وصفنه بها جادات أيضاً . وكان أشراف قريش ربما تحرَّجوا من شعره ، واحتاطوا فى

حماية نسائهم من روايته والظهور عليه ، ولم يكن عمر يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسه ، وبحسه ليس غير . كان موكلا بالجمال يتبعه كما كان يقول . ومن هنا كانت نفسه ربما اشتغلت بغير امرأة فى وقت واحد . وكان مع ذلك صادق الحب قويه أيضاً . فلم يكن قلبه هو الذى يدفع حسه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل إليها . وإنما كان حسه هو الذى يدفع قلبه ؛ فلم يكن يرى امرأة رائعة الجمال بارعة الحسن حتى يخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة ، وحتى يجد بها ما شاء له الحب من وجد لاحد له . ولكنه لا يكاد يرى امرأة أخرى حتى يفتن بها الفتنة كلها ويحبها الحب كله . وكان صادقاً فى هذا كله ، لأنه إنما كان يحب بحسه لا بعقله ولا بقلبه . وكانت النساء مفتونات به ، متهالكات عليه ، يتنافسن فيه ويستبقن إلى مودته وإرضائه ، وتحريضه على قول الشعر ، وإغرائه بالغزل فيه . وكان هو مفتوناً بهؤلاء النساء . لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال ، حتى يخلبه مظهر آخر ، وكان لا يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى ، فكان طمعه متصلا ، وأمله لا حد له .

وقد كان يتغزل بهؤلاء النساء جهرة فى غير تكتم ولا استخفاء ، ولم يكن يكتفى بإعلان غزله ، بل كان يستعين عليه نفراً من

أشراف قريش فيعينونه ويجدون فى هذه المعونة لذة وغبطة . وكان موسم الحج بالنسبة إليه معرضاً للجمال ، يستقبل فيه الوافدات من المدينة والشام والعراق فيتصل بهن ، ويتحدث إليهن. وكانت له رسل تعمل فى ذلك ، فتأتيه المواعيد فى مكة حيناً ، وفى منى حيناً آخر . وقد كانت عائشة بنت طلحة قد علمت بأمر هذا الفتى ، وكانت حريصة على لقائه والتحدث إليه . وكانت تريد أن يقول فيها الشعر كما قال فى غيرها من نساء قريش ، فانتهزت فرصة الحج ، وخرجت إلى مكة كغيرها من النساء ، لا تريد الحج ، وإنما تريد أن تلقى عمر وتتحدث إليه وتحرضه على قول الشعر فيها .

وأقبلت عائشة على مكة فى مواكبها الفخمة الرائعة ، يسبقها عرف المسك ونشر القرنفل ، والجوارى من حولها يملأن الجو بوجوههن المشرقة وأصواتهن العذبة جمالا وغناء ، فما راعهن إلا فتى ينسل بينهن كأنه الحية أو كأنه اللص . فلا تكاد تراه عائشة حتى تعتقد أنه عمر بن أبى ربيعة . وحتى تحس كأن دمها كله قد صعد إلى وجهها . وتسأل عائشة جواريها عنه فتجيبها إحداهن وكأنها تتغنى : « قالت أبو الخطاب أعرف زيه » . وتضحك الجوارى كلهن ولكن جارية أخرى تقول فى صوت عذب رائع أخاذ : « تبالهن بالعرفان لما

عرفنى » . وتسر عائشة فى نفسها حباً له ، وإعجاباً به ، وتظهر للجوارى إنكارها له ، وضيقها به ، وسخطها على انسلاله إليهن ، وتضم مطرفها إليها كأنها تخشى أن يراها ، ولكن عمر ما زال يطوف حولها ، ويتعرض لها ، حتى وافقها وهى ترمى الجمار سافرة فما كاد يراها حتى فقد رشده وصوابه ، ووقف ساهماً واجماً لا يعرف ماذا يصنع ، ولا يدرى كيف يقول . وقد ظل قائماً واجماً كأنه الصنم ، وجمال عائشة الرائع يملأ الجو قد أخذ نفسه من جميع أقطارها ، وغمر قلبه من جميع وجوهه ، فلم يخرجه من ذهوله ووجومه إلا صوت عائشة يصل إلى أذنيه عذباً رائعاً وهى تقول له : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق . وينصرف عمر وإن عائشة لتقدر فى نفسها أنه لن يقبل المساء حتى يكون قد قال فيها شعراً . ولا يقبل المساء حتى تسمع المغنين يتغنون قوله فيها :

إنى وأول مـــا كلفت بحبهـــا
عجب ، وهل فى الحب من متعجب ؟
نعت النساء فقلتُ لستُ بمبصر
شبهـــاً لها أبداً ، ولا بمقرب
فمكثن حيناً ، ثم قلن : توجهت
للحج ، موعدها لقـــاء الأخشب

أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى
والقلب بين مصـــدق ومكذب
فلقيتهـــا تمشى تهادى موهنـــاً
ترمى الجمار عشية فى موكب
غراء يعشى الناظرين بياضهـــا
حوراء فى غلواء عيش معجب
إن التى من أرضهـــا وسمائهـــا
جلبت لحينك ليتهـــا لم تجلب

٧

وتقبل عائشة على المدينة بعد انتهاء الموسم راضية عن نفسها معجبة بجمالها ، والجوارى من حولها يتغنين قول ابن أبى ربيعة فيها ، فيملأن الجو من حولها نغماً كأروع ما يكون النغم وهى تسمع لهن مسرورة محبورة ، ولكنها ربما انصرفت عنهن مفكرة فى عمر : هذا الفتى الأنيق الرشيق ذى الوجه النضر والقوام المعتدل . هذا الذى يتهالك على النساء ، وتتهالك عليه النساء . لقد وقفت منه موقف الممتنعة الأبية ، وشهد الله لقد تصنعت

هذا الامتناع ، وتكلفت هذا الإباء . ولو تركت نفسها على سجيتها لرحبت بلقائه ، وجلست إليه فاستمعت له وتحدثت إليه ، لقد كانت معجبة بإبائها حين أبت ، فخورة بامتناعها حين امتنعت . ولكنها الآن تشعر بحزن لاذع وألم ممض وندم لا حد له . ألا كان يجدر بها أن تجلس إليه فتعرف من هذا الفتى ؟ وأى شىء فيه يغرى النساء ؟ أوجهه المشرق ؟ أثغره الباسم ؟ أحديثه العذب ؟ أغزله الرقيق ؟ أشىء آخر فى تكوينه ؟ لا تدرى . فما زال عمر غامضاً عليها ، وقد كانت تحن إلى غزله ، فأصبحت تحن إلى معرفته . ولكن هل إذا رأته واضحاً ناصعاً كأنه فلق الصبح أتحبه حينئذ كما تحبه الآن ؟ وتعجب به حينئذ كما تعجب الآن ؟ لا تدرى . فهذا شىء جديد سيفسد عليها حياتها من غير شك . وإنها لتسترسل فى خواطرها هذه ، فترى النساء مقبلات على مكة لا يردن الحج ، وإنما يردن لقاء هذا الفتى ، وتسمع صوتاً كأنه صوته يحمل إليها قوله :

أومت بعينيها من الهودج لولاك فى ذا العام لم أحجج
أنت إلى مكة أخرجتنى ولو تركت الحج لم أخرج

ثم ترى النساء يجلسن فى الحرم يذكرن هذا الفتى ، ويرقبنه كلما غدا أو راح . ولا تكاد تمد عينيها إلى هؤلاء النساء ، حتى ينتهى إليها صوت عذب ما تشك فى أنه صوته

وإذا هذا الصوت يقول لها فى نغمات جميلة رائعة :

بينما يذكرنني أبصرنني دون قيد الميل يحدو بى الأغر
قالت الكبرى : أما تعرفنه ؟ قالت الوسطى : بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟

ولكنها لا تكاد تنتهى من هذه الصور حتى ترى المسجد الحرام ، وترى فيه نسوة قد جلسن يترصدن الفتى ، وإذا إحداهن تقول لصاحبتها :

قومى تصدى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تمشى على أثرى
قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف فى عمر

والخواطر تلح عليها شيئاً فشيئاً ، وإذا هى ترى نفسها ترقبه فى خلوة من خلواته الآثمة مع صديقة من صديقاته ، وإذا هى تريد أن تحول وجهها عنه ، ولكنها تسمع صوتاً يأتيها من بعيد ، من بعيد جداً ، وهو يقول لها :

وناهدة الثديين قلت لهـا : اتكى
على الرمل من جبانة (١) لم توسد
فقالت : على اسم الله أمرك طاعة
وإن كنت قد كلفت ما لم أعود

(١) الجبانة : الصحراء .

فلما دنا الإصباح قالت : فضحتنى
فقم غير مطرود ، وإن شئت فازدد

وإذا هى تحاول أن تلومه على هذا الإثم ، ولكن صوته يبلغ أذنيها ، وهو يقول لها فى نغمات موسيقية نفاذة إلى القلوب أخاذة للنفوس :

لما تعاظم أمر وجدى فى الهوى   وكلفت شوقاً بالغزال الأدعج (١)
لسريت فى ديجور ليل حندس   متنجداً بنجاد سيف أعوج (٢)
فقعدت مرتقباً ألم ببيتها   حتى ولجت به خفى المولج
حتى دخلت على الفتاة ، وإنها   لتحط نوماً مثل نوم المبهج (٣)
فوضعت كفى عند مقطع خصرها   فتنفست نفساً فلم تتلهج
فلزمتها ، فلثمتها ، فتفزعت   منى وقالت : من؟ فلم أتلجلج
قالت : وعيش أبى وحرمة أخوتى   لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها ، فتبسمت   فعلمت أن يمينها لم تحرج
فتناولت رأسى لتعلم مسه   بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها   شرب النزيف ببرد ماء الحشرج (٤)

---

(١) العين الدعجاء شديدة البياض وشديدة السواد .

(٢) النجاد : حمائل السيف . والحندس : الظلام الحالك .

(٣) تحط نوماً : أى تسرع فى النوم . والمبهج المسرور الطيب الخاطر .

(٤) الحشرج : النقرة فى الجبل .. والنزيف : المجروح الذى أهلكه الظمأ .

وتود عائشة لو رأت الفتاة محزونة لما تورطت فيه من خطيئة نادمة على ما انغمست فيه من إثم . ولكنها لا ترى الفتاة إلا ناعمة بهذه الخطيئة ، مستمتعة بهذا الإثم . وإذا كانت محزونة لشيء فإنها محزونة لانتهاء نعيمها واستمتاعها . وقد كانت تود أن تنعم وتستمتع حتى آخر الدهر . هنالك كانت تثور عائشة ولكن صوت عمر يصل إليها وهو يقول فى سخرية لاذعة :

تقول إذ علمت أنى مفارقها   ياليتني مت قبل اليوم يا عمر

كانت هذه الخواطر تلح على عائشة وهى مقبلة على المدينة ، فكانت تهم أن تعود ثانياً إلى مكة ، لتعرف من هذا الفتى ؟ ومن عسى أن يكون ؟ وما هذا الإغراء الذى يختلب به قلوب النساء ؟ ثم ما هذه القوة الهائلة التي يتسلط بها على كثير من النساء والرجال فيتخذهم رسلا يتوسطون بينه وبين صديقاته ؟ إن ابن أبي عتيق هذا الفتى الشريف الحسيب ذا المكانة العالية ، لا يكاد يسمع قوله :

من رسولى إلى الثريا فإنى   ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

حتى يذهب فيتوسط بينه وبينها ، ويعيد صلة الود بينهما قوية متينة . وإن هذه المرأة التى أرسلها إلى إحدى صديقاته ليست امرأة جاهلة ولا غافلة ، وإنما هى كما قال فيها :

فأتتهـــا طبـــة عالمـــة تخلط الجد مراراً باللعب
تغلظ القول إذا لانت لهـــا وتراخى عند سورات الغضب
لم تزل تصرفهـــا عن رأيها وتأناها برفق وأدب

بل إن ابن أبي عتيق لم يكد يسمع هذا الوصف حتى قال لعمر : إن الناس ليطلبون خليفة مذ قتل عثمان فى وصف قوادتك هذه فما يجدونه . أى إغراء ، وأى قوة هائلة هذا الإغراء وهذه القوة التى يتسلط بهما هذا الفتى على قلوب الرجال والنساء جميعاً . لقد كان هذا الفتى عندها قبل اليوم شخصاً مفهوماً واضحاً تسمع أخباره وأشعاره فتلهو بها . ولكنه الآن شخص غامض . ترى نفسها فى حاجة شديدة إلى معرفته والوقوف على سر إغرائه وقوته . وهنا كانت عائشة تود لو عادت ثانياً إلى مكة . ولكنها تذكر أن موسم الحج قد انقضى ، وأن ليس للعودة إليها من سبيل . هنالك كانت تتمنى لو أن الدهر كله كان موسما للحج . وهنالك كانت تذكر قول عمر :

أيها الرائح المجد ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطارا
من يكن قلبه صحيحاً سليما ففؤادى بالخيف أمسى معارا
ليت ذا الدهر كان حتماعلينا كل يومين حجة واعتمارا

ولكن ما أسرع ما كانت تذكر قول ابن أبي عتيق لعمر

حين سمع هذه الأبيات : الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتم لك فسقك .

وإن عائشة لفى ذلك ، وإذا إحدى جواريها تهتف بها : أين أنت يا سيدتى ؟ ألا تسمعين لهذا الغناء الذى يملأ الجو من حولك ؟ ألا تقبلين عليه وقد أقبل عليك ؟ فتعود عائشة إليها مبتسمة وهى تقول لها : لقد كنت فى مكة . قالت الجارية وتضاحكت وتضاحك الجوارى كلهن : فعودى إلى المدينة ، فقد أقبلنا عليها . وقد يخيل إلىّ أننا قد قربنا من الدار .

٨

وتستأنف عائشة حياتها مع زوجها عبد الله شاقة عسيرة ، لا تغير من سيرتها معه شيئاً . فهى نافرة جامحة عنيفة سيئة العشرة لا تخلو إليه خلوة الزوج إلى زوجها الذى تحبه وتؤثره ، فتتحدث إليه أحاديث فيها الثقة والأمن ، وفيها اللذة والمتاع ، وفيها قبل كل شىء ارتفاع الكلفة وزوال الحرج ، وإنما تخلو إليه إذا خلت ، مبغضة له ضيقة به شقية بهذه الخلوة ، فتذوق معه هذه السعادة فى ساعات قصار . فإذا انقضت هذه الساعات

وانقضى معها هذا الحلم الغريب ، أفاقت مبغضة له ، ضيقة به نافرة منه . وهو راض عن هذا كله ، وهو ساخط على هذا كله . ولكن ماذا يصنع ؟ وما عسى أن يصنع ؟ لقد هم كثيراً أن يتقاضاها شيئاً من الرفق واللين وحسن العشرة ، ولكنه كان واثقاً بأنه يستطيع أن يتقاضاها ما شاء فلن يظفر منها إلا بما تشاء هي ، ولن تشاء هي إلا هذه الغلظة وهذه الجفوة وهذه العشرة السيئة التي أصبح لا يطيق لها احتمالا . هنالك كان يفكر في طلاقها والخلاص منها . ولكنه لا يكاد يفكر في ذلك حتى تأخذه رعدة عنيفة تضطرب لها نفسه كلها ؛ فقد كان ضيقاً بها ، ولكنه كان محباً لها . وقد كان ساخطاً عليها ، ولكنه كان هائماً بها . ويقبل عليها ذات يوم فيدنو منها متلطفاً . ويداعبها هادئاً ، فلا تلين ولا تدين ، وإنما تجفو وتمعن في الجفوة ، وتقسو وتلح في القسوة ، وإذا هو يقسم ألا يقربها ولا يمسها بعد اليوم . قالت : إذن هو الإيلاء [1] . قال : هو ذاك . وتتنفس عائشة الصعداء ، وتهيئ نفسها لمغادرة المنزل فرحة مرحة ، ناعمة باسمة ، فقد كانت في عسرة ففرجها الله عنها ، وقد كانت في ضيق ، ففتح لها عبد الله بهذا الإيلاء أمراً لم يكن في حسابها .

---

(١) الإيلاء : اليمين . وفي الشرع أن يقسم الزوج ألا يقرب امرأته. وحكمه أن يتربص به أربعة أشهر . ثم يوقف . فإما أن يطلق وإما أن يرجع .

وتذهب عائشة إلى خالتها عائشة أم المؤمنين ، فتقيم عندها مبتهجة القلب راضية النفس ناعمة البال هادئة الضمير . لا تلقى بأساً ، ولا تشكو عناء . ومن المحقق أن عبد الله قد أرق منذ الليلة أرقاً طويلا ، ولم يطعم النوم إلا حين كادت ظلمة الليل أن تنجلى . ومن المحقق أيضاً أن عبد الله لم يهدأ قلبه ، ولم تطمئن نفسه لبعد عائشة ، وإنما كان يتحرق شوقاً إليها إذا أقبل الليل ، ويتحرق شوقاً إليها إذا أقبل النهار ، وينصرف إلى ما ينصرف إليه من أعمال الحياة وأعراضها . ولكنه كان يحس دائماً كأنه فقد شيئاً ، وكأنه لا يستطيع عنه صبراً ، وكأن الأمور لن تستقيم له إلا إذا وجد هذا الشىء . وكان هذا الشعور يصحبه فى أوقاته كلها . وكان من أجل ذلك منغص الحياة دائماً ، ولكنه كان يجاهد نفسه ، ويخفى أمره ، حتى إذا لم يستطع صبراً ولا جهاداً أقبل على عمته عائشة أم المؤمنين يسعى إليها فى هدوء ظاهر متكلف ، وهيام خفى مكظوم ، حتى إذا جلس إليها حدثها فى أمر عائشة هذه التى أقبلت عليها منذ أربعة أشهر . فتسأله عمته : أيريد طلاقها حقاً ؟ فيبتسم عبد الله ابتسامة فاترة ، ويقول لها :

يقولون طلقها لأصبح ثاوياً ... مقيما علىّ الهم ، أحلام نائم
وإن فراقى أهل بيت أحبهم ... لهم زلفة عندى لإحدى العظائم

قالت عمته : إذن فضم زوجك إليك ، فإنى أخشى عليك الإيلاء . فيضم عبد الله زوجه إليه ، ويستأنفان معاً حياتهما الشاقة العسيرة .

ولستُ من الجهل والحمق بحيث أحصى لك الأيام والليالى التى كانت تتتابع ويقفو بعضها إثر بعض . ولست من العبث والسخف بحيث أحصى لك ما وقع فى هذه الأيام المتتابعة والليالى المتناصية من الحوادث والخطوب. فلو كان من الممكن إحصاء الأيام والليالى ، أو كان من الممكن إحصاء الحوادث والخطوب التى تقع فيها ، ما اضطررنا حين نكتب لك التاريخ ونسجل الأخبار . وحين نقص عليك القصص ونتحدث بأنباء الماضى أن نقول لك : عاش ماشاء الله أن يعيش وأقام ما أتاح الله له أن يقيم . ونقول لك : مرى يا أيام وكرى يا ليالى فما أسرع ما يكبر أبناء الأحاديث . فلنقف إذن عند ما يجب أن نقف عنده من حياة عائشة وعبد الله . ولنقدر الأيام والحوادث كما نستطيع ، وكما يصور لنا العقل والخيال ، فتقديرها كما ينبغى أن تقدر ، وتصويرها كما يجب أن تصور ، أبعد منالا من أن يبلغه طمع الطامعين وطموح الطامحين . والشئ الذى أستطيع أن أقرره هو : أن عبد الله قد ضم زوجه إليه ، وعاش معها راضياً ساخطاً ، وسعيداً شقياً . يفترقان ويلتقيان ، يفترقان وهى سعيدة

بهذا الفراق ، ويلتقيان.وهى شقية بهذا اللقاء ، ويذوقان معاً سعادتهما فى ساعات قصار ، حتى تم تكوين الأسرة فأنجبت عائشة أبناءها عمران وبه كانت تكنى . وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وقد تزوج نفيسة هذه فيما بعد الوليد بن عبد الملك . وليس من شك فى أن عائشة قد انصرفت إلى هؤلاء الأبناء ، وما يستتبعون من بهجة وقرة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . ولكن هذا لم يكن ليمنعها من أن تقبل على مكة إذا أقبل موسم الحج. فترى هذا الفتى الأنيق الرشيق، هذا الذى يغرى النساء وتغريه النساء ، هذا الذى يتسلط بقوته المعنوية على الأشراف والحكماء ، فيتخذهم رسلا بينه وبين صديقاته . ومن المحقق أنها قد رأت هذا الفتى كثيراً ، واستمعت له كثيراً أيضاً ، ولكنها لم تفهم سر إغرائه وقوته . ولم تظهر من نفسه على جميع أثنائها وأنحائها . فكانت تسعى دائما إلى أن تعرفه ، وكان يخفى عليها دائماً منه بعض الشيء . فكانت معه فى طموح مستمر . وجهاد متصل . ومن يدرى ؟ فلعل عائشة سألت عنه الثريا صديقته ، فهى أكثر النساء اتصالا به وحديثاً معه وخلوة إليه . فأجابتها الثريا إجابة غامضة أيضاً لم تفهم منها شيئاً ، إذ قالت لها : إن عمر بن أبى ربيعة قصة الحب والغزل التى لا تنتهى . فهو إغراء دائم ، وسحر متصل ، أخص ما يمتاز

به أنه يشغل النساء عن أنفسهن وعما حولهن من الناس والأشياء وكانت عائشة تعود من مواسم الحج فتستأنف حياتها مع زوجها عبد الله ، شاقة عسيرة ، لا تغير من سيرتها معه شيئاً ، فهى قاسية عليه نافرة منه ضيقة به زاهدة فيه .

قالت عائشة أم المؤمنين — وهى تكفكف دموعها بعد موت عبد الله — : ما رأيت كعائشة بنت طلحة غلظة قلب وجفاء طبع ؛ مات زوجها عبد الله وهى عنده فما دمعت عينها ولا فتحت فاها عليه .

٩

وكان مصعب بن الزبير فتى وسيما قسيما ، أنيقاً رشيقاً ، وكان شجاعاً مقداماً رفيع المكانة بعيد الصوت . وكان أميراً على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير . وكان فى حروب دائمة مع الأمويين الذين كانوا ينهضون لقتاله ، وينفذون إليه الجيوش وراء الجيوش ، فكان يخرج إليها ويضربها ويفرق شملها ويفعل بها الأفاعيل . ولم تكن حروبه هذه تصرفه عما ينبغى لشبابه من الحياة الباسمة المبتهجة ، فكان يأخذ بحظه من اللهو ، ولا يترك نصيبه من اللذة . وكان لداته وأترابه يختلفون إليه

إذا كان المساء ، فيسمع منهم أحاديثهم عن الغزلين والمغنين ؛ هذا يحدث عن عمر بن أبى ربيعة ، وهذا عن الأحوص بن محمد وهذا يذكر جميلا ، وهذا يصف ألحان الغريض ، وهذا يتحدث عن فتنة النساء بالغزل وتهالكهن على الغزلين . وكانت هذه الأحاديث تعجبه وتروقه ولا سيما إذا اتصلت هذه الأحاديث من قريب أو بعيد بزوجه سكينة بنت الحسين .

وكان مصعب قد تزوج سكينة هذه بعد موت زوجه فاطمة بنت عبد الله بن السائب أم ولديه عيسى وعكاشة . وكانت سكينة فتاة قد تأيمت بعد موت زوجها وابن عمها وأبى عذرتها عبد الله بن الحسن بن على . وكانت رائعة الجمال فصيحة اللسان عذبة الحديث خفيفة الروح كثيرة المرح والدعابة فى براءة وطهر وخفر . وكانت برزة لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم فى ألوان الحديث . وكان الغزلون والمغنون يحبون منها ذلك ويكلفون به ، ويختلفون إليها إذا كان المساء . فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل . وكانت من أجل هذا كله حديث الناس فى الحجاز والعراق والشام . وكان مصعب يجد لذة قوية حين يسمع الناس يتحدثون عنها . وكان كلما سمع ذلك لا ينكر ما يسمع ، ولا يكره ما يجد من الشعور ، ولا يرد نفسه عن هذا الغرور الذى يثيره فى الرجل إعجاب

الناس بزوجه وتهالكهم عليها . وكان أصحابه إذا اختلفوا إليه ، فتحدثوا عن جميلات النساء ، ثم ذكروا سكينة بنت الحسين وما تمتاز به من جمال رائع ولسان فصيح ومرح برىء أطالوا النظر إليه معجبين به مكبرين له ، وكأنهم يقولون له : أنت صاحب هذا كله وأنت المالك لهذا كله ، وأنت المستمتع بهذا كله ، فكان مصعب إذا سمع ذلك أحس راحة وأمناً وثقة ، ثم لا يلبث أن يحس شيئاً من الكبرياء ما أرى إلا أن أصحابه قد لحظوه عليه وهم يتحدثون إليه . وإنهم ليتحدثون إليه ذات يوم إذ يذكرون له عائشة بنت طلحة ، هذه الفتاة التى لم تنزل من السماء مع الملائكة ،ولم تنجم من الأرض مع الرياحين ، ولكنها تمتاز من نساء قريش جميعاً بإشراق الوجه ونقائه ، وروعة الصورة وبراعتها ، ورقة الصوت وعذوبته. فكأن شخصها أشبه شىء بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وإنما تلذ كل ما فى الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . ثم يذكرون له أنها قد تأيمت بعد موت زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر . ثم يغرونه بالزواج منها ،ويقولون له : إنك إن تزوجت منها كانت عندك عقيلتا قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة .

ويهم مصعب أن يتكلم . ولكن أصحابه لم يمهلوه وإنما

قالوا له : وإذا كنت تريد أن تبعث إليها بمن يراها فدونك جوابة البيوت عرافة الأسرار : عزة الميلاء .

وكانت عزة الميلاء هذه امرأة من أهل المدينة عذبة الصوت مشرقة الوجه عجيبة النشاط ، وكانت تتنقل بين بيوت الأشراف فتملؤها بصوتها العذب ووجهها المشرق ونشاطها العجيب غناء وجمالا وحياة . وكان هؤلاء الأشراف يألفونها ويجدون فى الجلوس إليها لذات مختلفة بما كانت تطربهم به من غناء وما كانت تنقل إليهم من أحاديث البيوت والأسر ، وما كانت تتحدث به إليهم من أمور النساء. ولم يكن فى المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لعزة الميلاء تدخله جهراً وتدخله سراً ونفس صاحبة البيت مفتوحة لعزة الميلاء أيضاً . تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها وقد تفضى إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكانت عزة الميلاء كثيرة الحركة سريعتها ، وإن شئت فقل كانت حركة متصلة ، كأنها النحلة لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . وكانت عذبة الحديث رشيقته ، لا يكاد لغوها ينقطع كما أن نشاطها لا يكاد يقف ، فهى لا تقبل على بيت من البيوت إلا أحالته إلى حركة ونشاط وغناء وحديث . وكانت خفيفة الروح لا يستثقل منها هذا الاضطراب العنيف الذى كانت تدفع إليه البيوت التى تدخلها دفعاً ،

وتغرقها فيه إغراقاً ، وربما أحس أهل هذا البيت أو ذاك شيئاً من الفراغ والضيق بالفراغ حين كانت تنتهى من غنائها وحديثها وتلقى تحيتها وتمضى مسرعة .

ويذهب مصعب إلى عزة الميلاء ويقول لها : إنى خطبت فانظرى لى . قالت : ومن خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة . قالت : فانتظر هنا حتى أرجع إليك . ثم قالت لجاريتها : يا جارية ! هاتى منقلى – تعنى خفيها – فلبستهما وخرجت ومعها خادم لها . فإذا بجماعة يزحم بعضهم بعضاً ، فقالت : يا جارية انظرى ما هذا ! فنظرت ثم رجعت فقالت : امرأة أخذت مع رجل . فقالت : داء قديم . امضى ويلك ! . فدخلت على عائشة فقالت لها : فديتك . كنا فى مأدبة أو مأتم لقريش ، فتذاكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك ، فلم أدر كيف أصفك ؟ فديتك . فألقى ثيابك . فألقت عائشة ثيابها وأقبلت وأدبرت فارتج كل شيء منها. فقالت لها عزة : خذى ثوبك فديتك . فقالت عائشة : قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتى . قالت عزة : وما هى ؟ بنفسى أنت . قالت : تغنينى صوتاً . فاندفعت عزة تغنى قول جميل :

خليلى عوجاً بالمحلة من جُمْلِ   وأترابها بين الأصيفر والحبل
نقف بمغان قد محا رسمها البلى   تعاقبها الأيام بالريح والوبل

فلو درج النمل الصغار بجلدها لأندب أعلى جلدها مدرج النمل (١)
وأحسن خلق الله جيداً ومقلة تشبه فى النسوان بالشادن الطفل (٢)

فقامت عائشة فقبلت ما بين عينيها ، ودعت لها بعشرة أثواب ، وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك ، فدفعته إلى مولاتها فحملته. ورجعت إلى مصعب فقال لها : ما صنعت ؟ قالت يا ابن أبى عبد الله . أما عائشة فلا والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة . . . (٣) وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف ، عظم القدم والأذن — وكانت عائشة كذلك — ويشكر مصعب عزة ويثيبها فيحسن ثوابها . ثم لا تمضى على ذلك أيام حتى يتحادث الناس بأن مصعب بن الزبير قد تزوج من عائشة بنت طلحة ، وأمهرها ألف ألف درهم ، وارتحل بها إلى العراق .

١٠

وكان فى مكة شاعر قرشى لم نتحدث عنه إلى الآن ، ويظهر أننا سنتحدث عنه منذ الآن . كان فى مكة شاعر

---

(١) أى ترك فيه ندوبا . والندب بالتحريك أثر الجروح .

(٢) الشادن الطفل : الظبى الناعم الرخص .

(٣) اقرأ النص كاملا فى الأغانى فنحن لا نستطيع أن نرويه لك .

قرشي هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام . وكان ظريفاً حلو النفس خفيف الروح عذب الشعر محبباً إلى نفوس النساء، وكان كريم المولد ضخم الثروة ممتاز المكانة قوى المروءة عظيم الحظ من الذكاء . كان من هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأرستقراطية الإسلامية ، والذين كانت أرستقراطيتهم تعتمد على الدين أو على المولد أو على الثروة أو على هذه الأشياء جميعاً . وأنت تعلم من غير شك أن الخلفاء من بنى أمية قد أبعدوا هؤلاء الشبان عن أمور الدولة ، واضطروهم إلى أرض الحجاز لا يجاوزونها إلا بإذن ، ولا يخرجون منها إلا فى حاجة ماسة . وأنت تعلم أيضاً أن هؤلاء الشبان قد جاهدوا جهاداً عنيفاً فى سبيل الاحتفاظ بمنزلتهم التى تركها لهم أصحاب النبى . ولكنهم لم يوفقوا وتمت الكلمة للاستبداد الأموى ، فاضطروا إلى هذه الحياة الفارغة التى يحيونها فى الحجاز . وأنت تعلم بعد هذا وذاك أنه لم يكن بد من أن يؤثر هؤلاء الشبان فى الحياة الإسلامية وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثروا فى السياسة ، فأثروا فى الأدب والحضارة ، فنحن مدينون لهم بالغزل ، ومدينون لهم بالغناء . ومدينون لهم بكل هذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإسلامية أيام بنى أمية .

كان الحارث بن خالد من هؤلاء الشبان فكان مبعداً عن

الحياة السياسية العامة ، مضطراً إلى أن ينفق أيامه فى اللهو واللعب . ويبلى حياته فى العبث والمجون ، فأخذ بحظه من هذا كله ونهج منهج ابن أبى ربيعة . وكان يذهب مذهبه فى الشعر لايتجاوز الغزل إلى المديح أو الهجاء . وكان يحب عائشة بنت طلحة ويهيم بها . ويقول فيها الشعر كلما قدمت مكة للحج أو العمرة . فلما تزوج مصعب بن الزبير من عائشة بنت طلحة وارتحل بها إلى العراق ، كان شعر الحارث بن خالد قد سبقهما إلى هناك. وإذا المغنون فى العراق والحجاز جميعاً يتغنون هذه الأبيات :

ظعن الأمير بأحسن الخلق ... وغدا بلبك مطلع الشرق
فى البيت ذى الحسب الرفيع وفى ... أهل التقى والبر والصدق
قرشية عبق العبير بها ... عبق الدهان بجانب الحق
بيضاء من تيم كلفت بها ... هذا الجنون وليس بالعشق
وتنوء تثقلها عجيزتها ... نهض الضعيف ينوء بالوسق
ما صبحت أحداً برؤيتها ... إلا غدا بكواكب الطلق (١)

واستقبل العراق حين استقبل الزوجين العظيمين أعياداً دامية سمينة ، كثر فيها الطعام وكثر فيها الشراب ، وشبع فيها الفقراء وسعد فيها الأشقياء . وأنفق العراق كله أياماً باسمة

---

(١) يوم طلق : أى مشرق لا برد فيه ولا حر ولا شىء يؤذى . يريد أن من تصبحه برؤيتها يرى الزمان صافياً طيباً ، تفاؤلا بطلعتها واستبشاراً .

لاهية فرح فيها إلى أقصى غايات الفرح ، وابتهج فيها إلى أبعد حدود الابتهاج ، وسعد فيها إلى أرقى درجات السعادة . واغتبط مصعب بما رأى . وابتهجت عائشة بما رأت . وأقبلا على الحياة يأخذان منها كل ما كانت تستطيع أن تقدمه إليهما من لذة وبهجة وسعادة ونعيم .

ولكن ماذا ؟ هذا يوم يقبل شاحباً حزيناً متهالكاً ، لاتظهر فيه الشمس إلا شاحبة حزينة متهالكة ، عليها صفرة لا تثير فى النفس إلا ما تثيره صفرة المرض أو صفرة الموت من الحزن والأسى . وهذا رسول قد أقبل على مصعب يحمل إليه كتاباً من أخيه عبد الله بن الزبير . ويفتح مصعب الكتاب فلا يكاد ينظر فيه حتى تغشى وجهه سحابة كثيفة من الحزن ، فقد رأى ـ ويا هول ما رأى ـ رأى أخاه عبد الله يعزله عن ولاية العراق ، ويقول له فى نفسه أسوأ ما كان يمكن أن يقال ؛ لأنه تزوج من عائشة بنت طلحة وأمهرها ألف ألف درهم .

وكان أنس بن زنيم قد أرسل إلى عبد الله كتاباً يقول له فيه :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
بُضْع الفتاة بألف ألف كامل وتبيت قادات الجيوش جياعا
لو لأبى حفص أقول مقالتى وأبث ما أبثثتكم لارتاعا

فما كادت هذه الأبيات تصل إلى عبد الله حتى جزع

وفزع . وقال : صدق والله . لو لأبي حفص يقول : إن مصعباً تزوج امرأة بألف ألف درهم لارتاع ، وتحدث عن مصعب حديثاً تستطيع أن تقرأه فى الأغانى دون أن نستطيع أن نردده لك ، لأن قوانيننا لا تبيحه . ولأن عاداتنا تمنعنا من إذاعته فى الناس . فالعصر قد تبدل ، ونظم الحياة قد تطورت . ثم كتب إلى مصعب هذا الكتاب يعزله ويؤنبه ويقسم عليه أن يلحق به بمكة ، ولا ينزل المدينة ، ولا ينزل إلا بالبيداء ، وقال له : إنى لأريد أن تكون الذى يخسف به بالبيداء ، فما أمرتك بنزولها إلا لهذا .

ويدخل مصعب على عائشة يكلف ثغره الابتسام ووجهه الإشراق ، فيخبرها بأنه مقبل على أخيه فى أمر من أمور الحرب التى بينه وبين بنى أمية . وأنه لن يمكث هناك إلا ريثما يتفاهم معه فى هذا الأمر . ويقبل مصعب على أخيه عبد الله ثم لا يعود إلى العراق إلا وقد ظفر منه بالرضا .

١١

وليس من شك فى أن مصعب بن الزبير قد سعد بالزواج من عائشة بنت طلحة . ولكن ليس من شك أيضاً فى أن هذا الزواج قد وقع من قلب سكينة بنت الحسين موقع

الخنجر حين يطعن به عدو عدواً . وأى خنجر أنفذ إلى أعماق القلوب من هذا الخنجر الذى يصوبه الرجل إلى صدر زوجه . حين يدخل عليها ضرة فى دارها ، وينغص بها حياتها ، ويذيقها ألم الغيرة وشقاء الحسد ، ويورطها فى الغدر والكيد والنفاق ، غير مبال بشيء ولا آبه لشيء ! لأنه إنما يستمتع بما أتاح الله له من رخصة وبما أباح له من حق ؟ ! . ثم أى خنجر أنفذ إلى أعماق القلوب من هذا الخنجر الذى يصوبه الرجل إلى صدر زوجه حين تثق به كما لم تثق بأحد ، وتعتمد عليه كما لم تعتمد على أحد ، وتطمئن إليه كما لم تطمئن إلى إنسان . ثم تنظر ذات يوم فإذا ثقتها وهم ، وإذا اعتمادها هباء ، وإذا اطمئنانها غرور ، وإذا زوجها الذى تصفيه الحب وتختصه بالود وتظهره على نجوى الضمير وأحاديث النفس قد مكر بها وكاد لها وأدخل عليها ضرة تشاركها فيه وقد تستأثر به من دونها ؟ ! . ثم أى خنجر أنفذ إلى أعماق القلوب من هذا الخنجر الذى يصوبه الرجل إلى صدر زوجه حين ترى نفسها ويراها الناس متسلطة عليه ، مستأثرة بقلبه وعقله ، تصرفه كما تريد ، وتدبر أمره كما تهوى ، دون أن يستطيع امتناعاً عليها أو إباء . ثم تنظر وينظر الناس فإذا هى قد فقدت سلطانها عليه . وإذا هو يجفوها ويتنكر لها وينصرف عنها إلى امرأة أخرى يتخذها

له زوجاً ، وإذا هو يلتمس عند هذه المرأة ما كان يلتمسه عندها من حنان الأم ومودة الأخت وبر البنت وعطف الزوج ومرح العشيقة . وإذا هو يريد إلى هذه المرأة ما كان يريده إليها من بهجة القلب ، ونعمة البال ورخاء العيش وراحة الضمير وهدوء النفس وابتسام الحياة ، وإذا الناس ينظرون إليها فى رحمة خير منها النقمة . وفى عطف خير منه الازدراء ، وفى إشفاق خير منه الاحتقار . وإذا هى تستحيي من الناس وتستحيي من نفسها قبل أن تستحيي من الناس . كذلك كان موقع هذا الزواج من قلب سكينة بنت الحسين . ولكنها كانت قوية النفس حازمة ضابطة لأمرها ، فلم يظهر أحد من حزنها على شىء وكانت تخلو إلى نفسها ، فتبكى ما شاء الله أن تبكى . فإذا ظهرت للناس ألقت حجاباً رقيقاً على أحزانها وآلامها ، وقابلتهم بوجه مشرق باسم ، ولكنه إشراق لا يكاد يثبت إلا متهالكاً متضائلا كأنه أشعة الشمس فى فصل الشتاء ، أو كأنه السحاب فى فصل الصيف. ولكنه ابتسام لا يدل على شىء إلا على التكلف والتصنع ، ولا يصدر عن شىء إلا الحزن المر ، واليأس الممزق للقلب . ولكن الأيام تمضى فتذهب بحدة هذا الحزن وشدته . وإذا سكينة تحيا كما كانت تحيا من قبل ، لولا أنها كانت تنظر فتجد زوجها قد انصرف عنها إلى زوجه الأخرى عائشة بنت طلحة .

والحق أن مصعباً قد انصرف إلى عائشة انصرافاً يكاد يكون تاماً . فقد كان يخرج إلى جيوش بنى أمية كلما أقبلت عليه ، فيبدد شملها ، ثم يعود إلى عائشة مشغوفاً بها ، ومشغوفاً بأن يصبح هو وهى حديثاً غزلا للمتحدثين. ولم لا ؟ أليس الناس يتحدثون عن قيس بن ذريح ولُبنى ؟ وأليسوا يتحدثون عن جميل ابن معمر وبثينة ؟ وأليسوا يتحدثون عن عمر بن أبى ربيعة والثريا ؟ بل أليسوا يتحدثون عن عمر بن أبى ربيعة وطائفة من النساء منهن عائشة بنت طلحة هذه ؟ فلم لا يتحدثون إذن عن مصعب بن الزبير وعائشة بنت طلحة ؟ وهو أحق الناس بأن يقرن إليها ؛ لأنه زوجها . وتشرق الشمس ذات يوم ، وتصفو السماء ويرق الجو ويخف الهواء وتظهر الطبيعة هادئة باسمة تستقبل حياة هادئة باسمة وتغرى الناس بأن يأخذوا بحظوظهم من الهدوء والابتسام . ويقبل مصعب على المسجد فيؤدى الصلاة ، ثم ينظر فيرى الشعبى – هذا المحدث الكبير – فيدنو منه باسما ، ويأمره أن يتبعه . ويخرج من المسجد والشعبى لاحق به . حتى إذا انتهيا إلى دار موسى بن طلحة أخى عائشة دخلاها . ثم دخل مصعب إلى حجلة فى الدار ، ووقف الشعبى ينتظر . وإذا بجارية قد خرجت تقول له : إن الأمير يأمرك أن تجلس . فيجلس . ويرتفع سجف الحجلة عن مصعب

ابن الزبير . ثم يرتفع السجف الآخر عن عائشة بنت طلحة .

قال الشعبي : فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما . ثم سألني مصعب : هل تعرف هذه ؟ قلتُ : نعم أصلح الله الأمير قال : ومن هي ؟ قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة : قال : لا . ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما زلتُ من ليلى لدن طرّ شاربي إلى اليوم أخفي حبها وأداجن
وأحمل في ليلى لقوم ضغينة وتحمل في ليلى عليّ الضغائن

ثم قال : إن شئت فقم . ويقوم الشعبي ويغادر الدار ، حتى إذا انقضى النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها منهزمة أمام هذا الليل الذي أقبل في هدوء وجلال ، كأنه سيل من الظلمة الحالكة ، يغمر سهول العراق وروابيه قليلا قليلا . أقبل الشعبي على المسجد ، فإذا دخله وجد الأمير جالساً على سريره فيه ، ويستدنيه الأمير ويسأله : هل رأيت مثل ذلك لإنسان قط ؟ قال الشعبي : لا والله . قال الأمير : أفتدري لم أدخلناك ؟ قال : لا . قال : لتحدث بما رأيت . ثم التفت إلى كاتبه عبدالله ابن أبي فروة ، فأمره أن يعطيه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً . قال الشعبي : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به ، بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار [1] ثياباً ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة .

---

(١) القصار : الذي يحور الثياب . والكارة ما يجمع فيه ثيابه .

١٢

ومن الخطأ أن يظن أن عائشة بنت طلحة كانت أقل كلفاً من مصعب بن الزبير بأن تكون حديثاً غزلا للمتحدثين . وآية ذلك أنه حين أقبل موسم الحج تهيأت له ، فاتخذت أجمل ما كانت تستطيع أن تتخذ من زينة ، وأعدّت من الهوادج والرحائل ما شاء لها الثراء واليسر ، وما شاء لها الترف والكلف بالجمال والفن . وضمت إليها من الجوارى كل مشرقة الوجه باسمة الثغر فاترة اللحظ فاتنة اللفظ . وخرجت لتلقى الغزلين والمغنين فتبهرهم وتسحرهم ، وتطرفهم أيضاً ببعض الأيادى ، وإذا هم يطرفونها بالغزل ، ويطربونها بالغناء ، وإذا هى غارقة فى جو حلو ، مغرقة فى نعيم لذيذ ، وإذا هى تحس كأنها قد انتقلت من هذا العالم إلى عالم آخر ، كله حب وود ، وكله بهجة وأمل ، وكله ابتسام وإشراق ، وإذا هى تفنى فى هذا العالم حتى كأنها جزء من أجزائه وعنصر من عناصره . ولم تكد عائشة تبلغ مكة وتستقر فيها حتى جاءتها الثريا صديقة عمر بن أبى ربيعة وأخواتها ونساء مكة المترفات الوادعات وغيرهن — وكان الغريض فيمن جاء — فدخل عليها النسوة ، وكلهن فرح مرح ، يلقاها بالتحية

ويقرئ عليها السلام ، وكلهن هائم مشوق يضمها بين ذراعيه ، ويقبلها قبلات حارة تنقل إلى قلبها بعض ما فى قلبه من حب ووفاء ، ومن إكبار وإجلال ، وكلهن قد ظهر فى وجهه البشر ، وألح عليه الابتهاج . وأقبلت عائشة عليهن مشرقة الوجه ، باسمة الثغر تحييهن ، وتشكر لهن ، وتجاذبهن أطراف الحديث ، ثم تأمر لهن بكسوة وألطاف[١] . كانت قد أعدتها لمن يجيئها . وتخرج كل واحدة منهن ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة ، والغريض بالباب ، حتى خرج مولياته مع جواريهن الخلع والألطاف ، فقال الغريض : فأين نصيبى من عائشة ؟ فقلن له : أغفلناك ، وذهبتَ عن قلوبنا . فقال : ما أنا ببارح من بابها أو آخذ بحظى منها . فإنها كريمة بنت كرام . واندفع يغنى بشعر جميل :

تذكرتُ ليلى ، فالفؤاد عميدُ وشطت نواها ، فالمزار بعيدُ

ويبلغ عائشةَ صوته عذباً رقيقاً ، فيه رقة الحرير ، وعذوبة الماء النمير ، فتبتسم وتقول : ويلكم ، هذا مولى العبلات بالباب يذكر نفسه ، هاتوه . فدخل ، فلما رأته ضحكت وقالت : لم أعلم بمكانك . ثم دعت له بأشياء أمرت له بها . ثم قالت له :

---

(١) جمع لطف (بالتحريك) وهو من طرف التحف ما ألطفت به أخاك ليعرف به برك .

إن أنت غنيتنى صوتاً فى نفسى فلك كذا وكذا ، (شىء سمته له) فغناها فى شعر كثير :

وما زلتُ من ليلى لدن طر شاربى إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة وتحمل فى ليلى على الضغائن

فقالت له : ما عدوتَ ما فى نفسى ، ووصلته فأجزلت .

وتخرج عائشة لأداء مناسك الحج ، فلا يكاد يراها أبو هريرة حتى يقف مسحوراً مبهوراً ، وإن حظه من اللهو ونصيبه من الاستمتاع بالحياة الفارغة الناعمة ضئيل ، ولكنها تقع من نفسه موقع قطرة الندى من الزهرة الغضة عند إشراق الصبح ، فيقول لها وهو لا يدرى ما يقول ، فقد أخذه جمالها من كل وجه ، وغمره حسنها من كل نحو : سبحان الله ! ، ما أحسن ما غذّاك أهلك ؛ لكأنما خرجت من الجنة . ويهم أن ينصرف ولكنها تقبل عليه وترنو إليه بطرف ساحر فاتر يثبته فى مكانه ، فيقول لها : ما رأيت شيئاً أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله . فتقول له : والله لأنا أحسن من النار فى الليلة القرة فى عين المقرور . وينصرف أبو هريرة وهو يبارك الله الذى أبدع هذا الوجه المشرق الحلو وهذا الطرف الساحر الفاتن ، وهذا الصوت العذب الذى يخلب العقول ويستهوى الألباب ،

وتقبل عائشة على المسجد الحرام ويراها ابن أبى ذؤيب ، وهى تريد الطواف ، فتبهره وتسحره ، فيسألها : من أنت ؟ فتقول له وهى تتضاحك وتتماجن :

من اللائى لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فيقول لها : صان الله ذلك الوجه عن النار . وينظر الناس إليهما باسمين ويسأله واحد منهم : أفتنتك أبا عبد الله ؟ فيقول له : لا ، ولكن الحسن مرحوم . وتسعى عائشة نحو البيت تريد الركن تستلمه . وتنظر فإذا عمر بن أبى ربيعة يطوف بالبيت ، وإذا هو يرسل إليها من عينيه الحادتين ناراً محرقة عذبة ، فيها حب لا حد له ، ورغبة لا حد لها ، وحنان لا حد له أيضاً ، فتبعث إليه بجارية لها ، وتقول لها : قولى له : غض جفونك عنى يا فاسق ، فإنى أجد للحظك مسا لاذعاً ، فيقول للجارية : قولى لها : وأنت فامددى إلى عينيك فإنى أجد فيهما شفاء لما يعذبنى من سقم ، ورياً لما يحرق فؤادى من صدى . فتقول للجارية : عودى إليه فقولى له : اتّق الله ولا تقل هجراً ، فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت ، فيقول للجارية : قولى لها : إن ابن عمك لا يقول إلا خيراً ، وقال فيها :

لعائشة ابنة التيمى عندى حمى فى القلب ، لا يرعى حماها

يذكرني ابنة التيمى ظبى ... يرود بروضة سهل رباها
فقلت له : وكاد يراع قلبى ... فلم أر قط كاليوم اشتباها
سوى حمش بساقك مستبين ... وأن شواك لم يشبه شواها [(١)]
وأنك عاطل عار ، وليست ... بعارية ، ولا عطل يداها
وأنك غير أفرع ، وهى تدلى ... على المتنين أسحم قد كساها [(٢)]
ولو قعدت ، ولم تكلف بود ... سوى ما قد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلمها كأنى ... أكلم حية غلبت رقاها
تبيت إلى بعد النوم تسرى ... وقد أمسيت لا أخشى سراها

وتنتهى عائشة من أداء المناسك ، وأكبر الظن أنها لقيت الحارث بن خالد هذا العاشق الذى أحبها وتمناها ، وكلف بها وحرص عليها ، وقضى أياماً لا يتحدث إلا عنها ، وليالى لا يفكر إلا فيها ، هذا الشاعر الذى خلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة البارعة ، وكان آخر ما قاله فيها هذه الأبيات التى ودعها بها حين ارتحلت مع زوجها مصعب إلى العراق . وأكبر الظن أيضاً أنهما قد تجاذبا أطراف الحديث . وماذا عسى أن يكون حديثهما إلا عن شباب الحجاز وفتياته ، هؤلاء الذين

---

(١) الحمش دقة الساقين ، والشوى الأطراف .
(٢) الأفرع طويل شعر الرأس ، والأسحم الأسود ، يريد به الشعر .

يمتازون بما يظلهم من نفوس حية ، وقلوب رقيقة ، وأكباد يعبث بها الحب ويعصف بها الغرام . وآية ذلك هذه الأبيات التى ودعها بها حين انتهى موسم الحج وأزمعت الرحيل .

زعموا بأن البين بعد غد　　فالقلب مما حدثوا يجف
والعين منذ أجد بينهم　　مثل الجمان دموعها تكف
ومقالها ودموعها سجم　　أقلل حنينك حين ننصرف
تشكو وأشكو ما أشت بنا　　كل بوشك البين معترف

فإذا أقبلت عائشة على العراق لم تسترح ولم ترح غيرها من الحديث عنها ، وإذا هى تريد أن تعيش فى جو يملؤه الحب والقصص والغزل والغناء جميعاً .

١٣

وثغر أغر شتيت النبات　　لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به　　وبالظن يقضى علينا الحكم

كان صوت عزة الميلاء ينطلق بهذا الشعر عذباً يملأ الجو من حوله عذوبة . جميلا يسبغ على من حوله وما حوله من الناس

والأشياء جمالا حلواً هادئاً، ولكنه قوى ملح كأنه ضوء الشمس ، لا يمنح الناس والأشياء جمالا وبهاء فحسب . ولكنه يبعث فيهم وفيها حياة وخصباً وقوة ونشاطاً . وكان كل شيء هادئاً مستقراً ، لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العذب الجميل ، وإلا هذه الآهات الطويلة المتصلة ، وهذه الألفاظ القليلة المتقطعة التى كانت تنطق بها هذه النسوة المبهورات المسحورات حين كان الإعجاب يأخذ عليهن طريق الإبانة والإفصاح ، وكان النهار قد انقضى بخيره وشره ، وحلوه ومره ، وأقبل الليل فى أناة ووقار وجلال ، فغمر بظلمته سهول العراق وآكامه كأنما يضمها إليه فى حب وحنان . وكانت عائشة بنت طلحة قد دعت إليها هذه النسوة من قريش ليستمعن إلى عزة الميلاء وكن قد جلسن من حولها وقد استحضرن عقلهن كله وحسهن كله وشعورهن كله ، فقطعن كل ما كان بينهن وبين العالم من صلة ، وأخلصن نفوسهن لهذا الغناء، يردن أن يلتهمنه حبا له وإعجاباً به وفناء فيه. وكانت عائشة بنت طلحة قد أجلستهن فى مكان زينته بالورد والياسمين ، وعطرته بعرف المسك ونشر القرنفل. وكانت قد خلعت على كل واحدة منهن خلعة تامة من الوشى والخز ، فلما جلسن فى هذا المكان الأرج ، واستقبلن هذه الخلع الغالية وأخذن يستمعن إلى هذا الغناء الرائع ، أحسسن أنهن قد انتقلن

من هذا العالم إلى عالم آخر كله حب وود ، وكله بهجة وأمل ، وكله سعادة ونعيم . ولكن ماذا ؟ إن صوتاً يرتفع من وراء هذه الستائر المسدلة مبهوراً مسحوراً من سحر هذا الغناء . إنه صوت مصعب بن الزبير زوج عائشة ، كان جالساً وراء هذه الستائر المسدلة يتحدث إلى رفاق له . وأكبر الظن أنه كان يتحدث إليهم فيما انتهت إليه حروب الزبيريين للأمويين ، وفيما هو فى هذا الحديث ، إذ بالجو يمتلئ من حوله غناء كأروع ما يكون الغناء وهو يعرف هذا الغناء ويألفه وتصبو إليه نفسه ، ويخلو إليه كلما عاد من هذه الحروب التى كانت تملأ عليه حياته وتشغله حتى عن نفسه ، فينسى به هذه الحروب وما تستتبعه من الأحداث والخطوب . إنه غناء عزة الميلاء قد ملأ نفسه جمالا وإشراقاً ، وقد غمر نفسه بنور لا يشبهه إلا هذا النور الذى يغمرها حين يجلس إلى عائشة ، فيستمتع بجمالها المشرق الحلو ، ويستمع إلى حديثها الفاتن العذب . وها هو هذا يتقدم إليهن ويدنو منهن وينادى عزة : يا هذه ! إنا قد ذقنا هذا الثغر الشتيت اللذيذ ، فوجدناه كما تصفين ! فبارك الله فيك يا عزة ! ثم يرسل إلى عائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عزّة فتأذنين لها فى أن تغنينا هذا الصوت ، ثم تعود إليك . وتأذن عائشة لعزة ، فتخرج عزة إليه فتغنيه هذا الصوت مرة

ومرة ومرة ، وإن الغناء ليأخذ نفسه من جميع أقطارها ويغمر قلبه من جميع وجوهه . فإذا انتهت من غنائها قال لها : يا عزة ! إنك لتحسنين القول والوصف . وأمرها بالعودة إلى مجلسها . وما يكاد البيت يفرغ من الزائرات والزائرين حتى تقبل عائشة على زوجها مصعب ، مشرقة الوجه باسمة الثغر ، وهى تقول له : أيهما أحب إلى نفسك ؟ جمال وجهى أم جمال هذا الصوت ؟ ما أرى إلا أنك قد نسيت الحروب وأهوالها ، والإمارة وأثقالها ، وأنفقت ساعة لذيذة ووقتاً سعيداً . قال مصعب وهو يأخذها بين ذراعيه : إن زوجاً يتيح الله له أن يستمتع بهذا الجمال لهو أسعد الناس .

١٤

ولكن من قال إن عائشة هذه الفاتنة المفتونة التى كانت تحول حياة مصعب أحلاماً ، وتجعل جده لعباً ، وتسرى عنه كل هم ، وتغرى به كل نعيم ، وتخلبه باللفظ واللحظ ، وتسعده بالقرب والوصل — لم تكن تعذبه بالتيه والصد ، ولم تكن تؤرق عليه ليله بالمعاسرة ، وتنغص عليه نهاره بالمغاضبة والمصارمة ؟ !

وهل كانت حياة هذين الزوجين إلا لوناً من ألوان الحب وفناً من فنون العشق ، وضرباً من ضروب الغزل ؟ ! لم يؤمن مصعب بينه وبين نفسه بأنه زوج فحسب ، وإنما آمن دائماً بأنه عاشق وعاشق مفتون ، ولم تؤمن عائشة بينها وبين نفسها بأنها زوج فحسب ، وإنما آمنت دائماً بأنها عشيقة ، وعشيقة قد استأثرت بقلب عاشقها وعقله ، تأمرهما بما تشاء دون أن تخشى منهما امتناعاً ، وتنهاهما عما تشاء دون أن تخشى منهما خلافاً ، وكيف يكون زوجاً هذا الذى لا يكتفى بأن يتحدث الناس عن عشقه لزوجه ، وإنما يمثل معها قصص الحب التى كانت تجرى حوادثها فى عصره ، أو يمثل معها الفصول التى تروقه من هذه القصص ؟ فقد حدثوا أن مصعباً كان جالساً إلى أصحابه ذات يوم يتحدثون عن الغزلين وأخبارهم وأشعارهم ، فروى له أحدهم قول جميل فى صاحبته بثينة :

لا أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظور
ولا انسلابتها خرسا جبائرها
إلىّ من ساقط الأوراق مستور

فود لو يعرف كيف جلتها ؟ فأنبأوه بأن أم منظور هذه

التى أشار إليها الشاعر لا تزال بقيد الحياة ، فكتب فى حملها إليه مكرّمة . وحملت إليه ، ووصفت له تلك الجلوة . فقالت : ألبستها قلادة بلح ، ومخنقة بلح . واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها ، وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق — أى الطيب — ومرّ بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ، ويلتفت إليها حتى غاب عنها . فقال لها مصعب : فإنى أقسم عليك إلا جلوت عائشة بنت طلحة مثلما جلوت بثينة . ففعلتْ . ثم ركب مصعب ناقته وأقبل عليهما ، وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير ، حتى غاب ، ثم رجع .

وكيف تكون زوجاً هذه التى تعلم حق العلم بما يضطرب فى نفس زوجها من حب ، وما يملأ قلبه من هيام ، فتستغل هذا كله أشنع استغلال وأبشعه ، فتعطف عليه فى قسوة ، وتقسو عليه فى عطف ، وتغريه حتى تطمعه ، وتأبى عليه حتى تيئسه ولا تبذل له من نفسها ما ينقع غلته ويروى صداه، وإنما تبذل له من نفسها ما يزيده ظمأ إلى ظمأ ، وتحرقاً إلى تحرق ، وإذا هو يقبل عليها ليبرد كبده ويطفئ ما فى أحشائه من لهب ، ولكنه لا يرجع عنها إلا وقد ازدادت كبده احتراقاً ، وازداد اللهب فى جوفه تلظياً واضطراماً فكأنها الخمر التى كان الأعشى يتداوى منها بها ، وكان أبو نواس يتخذ داءها دواء .

والحق أن عائشة كانت ماهرة ماكرة ، تعرف كيف تحتفظ بعاشقها وهى لا تحتفظ بعاشقها إذا بلغ منها الغاية ، وانتهى منها إلى ما يرضيه ، وإنما تحتفظ به إذا كان معها دائماً فى جهاد متصل . وطموح مستمر . فالعشاق لا يكرهون شيئاً كما يكرهون الراحة المطردة ، ولا يضيقون بشيء كما يضيقون بالسعادة الموفورة . هم فى حاجة إلى الألم ، يجدون فيه لذتهم ، وفى حاجة إلى الشقاء يجدون فيه سعادتهم ، وفى حاجة إلى الشكوى يجدون فيها راحتهم ومتاعهم . فكانت عائشة من أجل هذا كله لا تقرب من عاشقها إلا لتبعد عنه ، ولا تشفيه من ظمئه إلا لتزيده ظمأ وتحرقاً ، وكانت تلتمس لمغاضبته ومصارمته الأسباب والعلل . ولم يكن التماس هذه الأسباب وهذه العلل عليها عسيراً ولا شاقاً ، فمصعب يجمع بينها وبين سكينة بنت الحسين ، وسكينة هذه امرأة قد عرفت حياة الضرائر ، وذاقت ألم الغيرة ، وبلت طعم الحزن منذ أن تزوج مصعب عليها عائشة فأحبها وكلف بها وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان . ولكن سكينة كانت امرأة لبقة بارعة الجمال ذكية القلب ، تعرف كيف تخفى على زوجها ما يكره ، وكيف تلقاه بما يحب . وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الجمال وهذا الذكاء لأن تستميل إليها زوجها . وربما اضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما ، وينسى

عائشة إلى حين . فأى شىء إذن أيسر على عائشة من التماس الأسباب والعلل لمغاضبة مصعب ومصارمته ؟ ! يكفى أن يزور مصعب سكينة . فإذا عائشة تلقاه متجهمة متنكرة ، وإذا هو يدعوها فلا تجيب ، فإذا ألح عليها فى الدعاء ثارت وفارت ، وأعلنت مغاضبتها له ، ثم انصرفت عنه لا تلوى على شىء . وينصرف مصعب عن سكينة ذات يوم فلا يكاد يقبل على عائشة حتى ينكر منها كل شىء . فقد رأى وجهاً مظلماً وجبيناً مقطباً . وإذا هو يسألها : ما خطبك ؟ وماذا تجدين ؟ وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين ؟ وإذا هى تقول له فى صوت فيه غيظ وفيه ألم ؛ لقد كنت عند سكينة بنت الحسين . قال مصعب يعابثها وهو يتضاحك : وهل تريدين أن أتنكر لسكينة؟ وهى لم ترنى منذ عرفتها إلا خيراً . لم أعرف منها إلا البر بى والنصح لى والطاعة فى كل ما أردت . فماذا جنت علىّ ؟ أو ماذا قدمت إلىّ ؟ حتى أجزيها من الخير شراً ، ومن العرف نكراً ، ومن البر عقوقاً . وهل تنقمين منى أن أنصفكما من حبى وقلبى وأن أرضى الله عن العدل بينكما ، والله قد طلب إلى المسلمين هذا العدل ؟ فصاحت عائشة فى صوت يملؤه الغيظ ، وتشيع فيه الحفيظة مظاهرةً منه (١) . ثم انصرفت مغضبة وأوت إلى غرفتها

---

(١) الظهار صيغة مؤذنة بالطلاق يفصلها الفقهاء فى كتب الفقه .

وهيأت فيها ما يصلحها . وقد جهد مصعب أن تكلمه ، ولكنها أمعنت فى الصمت وألحت فى الإعراض . فإذا ضاق مصعب بصمتها وإعراضها خرج كئيباً محزوناً لا يدرى ماذا يصنع ، ولكنه نظر فإذا هو يطرق باب عبد الله بن قيس الرقيات .

وكان عبد الله بن قيس الرقيات هذا شاعراً غزلا ، ماهراً فى الغزل . أو قل متفوقاً فيه . وكان حلو النفس خفيف الروح عذب الشعر خصب الخيال قوّيه أيضاً . ولكنه لم يقصر جهوده الفنية على الغزل ، ولم يقصر حياته على اللهو والعبث ، وإنما تنوعت حياته فكان فيها اللهو والجد . وتنوع حظه من الفن الشعرى ، فكان فيه الغزل وغير الغزل من المدح والوصف والفخر والنضال السياسى . وكان يتخذ اللهو أحياناً وسيلة إلى الجد . والعبث وسيلة إلى السياسة ؛ فكان يتغزل أحياناً لا ليلهو ولا ليصف عواطف نفسه حقاً ، وإنما يتغزل ليعبث بخصومه السياسيين إذ يذكر نساءهم بما يحسن ، وما لا يحسن . على أنه فى غزله الهجائى هذا كان كريماً يخاصم الرجال دون النساء ؛ فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن ، أو يذيع بينهن الفاحشة كذباً وزوراً . بل كان يمضى إلى أبعد من هذا ؛ فهو يعلم أن النساء فى عصره كن يحببن الغزل ويكلفن به ويطلبنه إلى الشعراء ، فكان يريد أن يتملق هؤلاء النساء . وأن يرضيهن عن نفسه ،

وأن يحبب إليهن هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبيتهن بوجه عام . وكان قبل هذا كله قرشياً يحب قريشاً ، ويرى أن السلطان يجب أن يكون لقريش ، وأن تعتز قريش فيه بمضر ، وأنّ من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية . وكان من أجل هذا يكره بنى أمية لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية . وكان من أجل هذا يحب الزبيريين ويغالى فى نصرهم ، ويجاهد معهم بسيفه ولسانه أشد الجهاد . وكان يحب مصعب بن الزبير أشد الحب وأعنفه ، وقد خرج معه إلى العراق ولزمه ، ومدحه فأحسن مدحه ، وقال فيه هذه الأبيات التى غاظت عبد الملك بن مروان

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ، ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور ، وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء

فلما غاضبت عائشة مصعباً خرج إلى صديقه عبد الله بن قيس الرقيات ، ولم يكد يلقاه حتى قال له عبد الله فى لهجة قد امتزج فيها الغضب والحنان ؛ ما رأيت كاليوم رجلا يدخل على الناس بما يكرهون. قال مصعب : وما ذاك؟ قال عبد الله :

وجه مظلم وجبهة مقطبة ، وشفتان تمتدان شبرين إلى أمام! حدثنى ماذا ألم بك منذ اليوم فغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين؟ وهم مصعب أن يتكلم وقد أخذ وجهه المنقبض ينبسط ، وأخذت شفتاه الممدودتان تعودان إلى مكانهما سواء . بل أخذت تفرق بينهما ابتسامة يسيرة ، فيها شيء من رضا وكثير من حزن. ولكن عبد الله لم يمهله ، وإنما قال له : أم تريد أن أحدثك أنا بهذا الحديث ؟ . قال مصعب : وإنك لتعلم ماذا ألم بى منذ اليوم ؟ قال عبد الله وهو يبتسم : إنك يا مولاى أمير عظيم ولكنك على ذلك تمر بأطوار الطفل الصغير . وأى عسر فى أن أقص عليك بدء حديثك ؟ لقد تركتك بالأمس وأنت تتأهب لزيارة سكينة بنت الحسين . وليس من شك فى أنك بعد أن أنفقت معها الليل وأقبلت مع الصبح على عائشة بنت طلحة استقبلتك كأسوأ ما يستقبل الزوج ، وقالت لك فى نفسك وفى زوجك أسوأ ما كان يمكن أن يقال . ولقد لقيت هذا كله باسماً أول الأمر ، فلما أحفظتك استحال ابتسامك ضحكاً ، فإذا ضقت بها آخر الأمر انصرفت عنها ، ثم عدت إليها بعد ساعة ، فحاولت إرضاءها ، ولكنها لم ترض . فانصرفت عنها مبتئساً مكتئباً ، فأسرعت إلىّ لتشركنى فى ابتئاسك واكتئابك . وتجد عندى تسلية وتسرية وعزاء . أليس هذا كل حديثك أيها الأمير ؟ أمحتاج أنا إلى

الذكاء الحاد لأعلم علمه ثم أعيده عليك كما كان ؟ قال مصعب لله أنت ! لقد كفيتني مئونة الحديث . قال عبد الله : ومع ذلك فرفه على نفسك فالأمر أيسر مما تظن ، وسوف أعيد صلة الود بينكما كما كانت قوية متينة !

وأقبل عبد الله بن قيس الرقيات على عائشة ، فلم يكد يجلس إليها حتى أنشدها :

إن الخليط قد أزمعوا تركى فوقفتُ فى عرصاتهم أبكى
جنية برزت لتقتلنى مطلية الأصداغ بالمسك
عجباً لمثلك لا يكون له خرْج العراق ومنبر الملك

وتضحك عائشة لهذا الشعر وتطربه . ثم يخوض معها فى ألوان مختلفة من الحديث . حتى إذا جاء ذكر مصعب حدثها عن حبه لها وكلفه بها وحرصه عليها فتشكو عائشة منه وتخبره بما كان بينهما ، ولكنه يطلب إليها أن تكلمه وترضيه وما يزال بها حتى تلين وتدين . ولكنها تقول له : كيف بيمينى ؟ فيقول لها : ها هنا الشعبى فقيه أهل العراق فاستفته . ويدخل عليها الشعبى فتخبره ، فيقول لها : ليس هذا بشىء . فتقول له : أتحلنى وترجع خائباً ؟ . وتأمر له بأربعة آلاف درهم .

١٥

ولكن عائشة لم تكن تدنى مصعباً إلا لتقصيه ، ولا تلطف به إلا لتعنف عليه . كانت تحبه وتعرف أنه يحبها . وكانت تريد أن تحتفظ بحبه لها . وهى لا تحتفظ بحبه لها إذا ظهرت له واضحة جلية ، فالحب لا يقتله شىء كما يقتله الوضوح والجلاء. فكانت من أجل ذلك تثير حولها شيئاً من الغموض يدعو مصعباً إلى التفكير والتروية ، وإلى البحث والاستقصاء . كانت تجلس إليه فتحدثه الحديث العذب ، وتهدى إليه الابتسامة الحلوة ، وتسوق إليه الدعابة الظريفة ، وتنظر إليه النظرة الرحيمة . حتى إذا جعل يأخذ بحظه من هذا كله شمست وجمحت وقد تركت فى نفسه وأمام عقله من الألغاز والأسرار ما يكلفه الجهد المضنى دون أن ينفذ إلى أعماقه . فإذا بلغت من شموسها وجموحها ما تريد . عادت إليه فى ابتسام يغشى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل ، وإذا هو ينظر إليها مسحوراً مبهوراً ، فلا يزيدها هذا إلا ابتساماً وإشراقاً ، وإذا هى تدنو منه فتترفق به ، وتميل إليه ، وتهديه قبلة حلوة حارة طويلة ، ثم لا تلبث أن ترتفع به إلى أقصى ما تستطيع من

اللذة والبهجة والسعادة والنعيم ، فإذا أفاق من هذا كله وجدها شامسة جامحة ، وإذا هو ساهم واجم لا يعرف ماذا يصنع ولا يدرى كيف يقول . وربما سارت عائشة فى شموسها وجموحها إلى آخر الشوط ، وإذا مصعب لا ينال أربه منها إلا بالإلحاح المتصل المضحك المحزن الذى يفسد على الرجل أمره . ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر، ويطلق لسانه بهذا الهذيان الذى يعبر دائماً عما لم يرد صاحبه إليه ، ويجعله يدور حول غايته كما يدور العابد حول الصنم ، أو كما يدور اللص حول البيت يبتغى ثغرة ينسل منها إليه . وقد لا يجدى هذا الإلحاح مع عائشة ، وإذا مصعب مضطر إلى ضربها يريد أن يقهرها وينتصر عليها ويظفر منها بما يريد . ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تذعن إلا إذا رغبت فى الإذعان . ومن أجل ذلك كان مصعب يرتد عنها فى أكثر الأحيان كما أقبل عليها . فإذا ضاق مصعب بهذه المعاسرة شكا ذلك إلى عبد الله بن أبى فروة كاتبه . فيقول له عبد الله : أنا أكفيك هذا إن أذنت لى . فيقول مصعب : فإنى قد أذنت لك . فافعل ما شئت . فإنها أفضل شىء نلته من الدنيا .

ويقبل الليل ويضرب سرادقه المظلم الكثيف على الكون . وتأوى عائشة إلى غرفتها ، وتخلو فيها إلى نفسها . ولكنها لا تجد

ميلا إلى النوم . فتمد عَيْنَيْهَا إلى الأشياء حولها فى الغرفة ، فترى ثراء ويسراً ، وترى ترفا وكلفا بالجمال والفن . ثم تمد عينها إلى المرآة أمامها ، وتثبتها فى أديمها الصافى الصقيل فتعود إليها بصورة رائعة بارعة ، ساحرة باهرة ، تحوطها هالة من الفتنة الفاتنة . وتطيل عائشة النظر إلى هذه الصورة التى تردها إليها المرآة فلا تلبث أن تحس شيئاً من الغرو والاكبرياء . ثم لاتلبث أن تذكر إعجاب الشباب بها وتهالكهم عليها . فتلتمس المعاذير لهؤلاء الشباب حين يرونها فيحدقون النظر فى وجهها تحديقا طويلا . أو يفصلون النظر إلى جسمها كله تفصيلا . فجمالها خليق أن يخلب ويسلب وأن يفتن ويروع .

وتختلف الخواطر على نفس عائشة ، فتذكر أن زوجها مصعباً لامها ذات يوم على كشف وجهها فأبت وقالت : إن الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنتُ لأستره . والله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد . وتسترسل عائشة فى هذه الخواطر فتذكر كيف انتهى بها الترف إلى أن يدخل عليها زوجها مصعب ذات يوم وهى نائمة متصبحة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فيوقظها وينثر اللؤلؤ فى حجرها ، فتقوم غاضبة وتقول له : نومى كان أحب إلىّ من هذا اللؤلؤ !

ثم تذكر كيف كانت تغاضبه للأسباب الهينة والأسباب ذات الخطر. وتنفرج شفتاها عن ابتسامة يسيرة لأنها تذكر أن أشعب الطماع دخل عليها ذات يوم فقال لها: جعلت فداك. قد علمت حبى لك، وميلى قديماً وحديثاً إليك، من غير منالة ولا فائدة. وهذه حاجة تقضين بها حقى، وترتهنين بها شكرى. قالت: وما عناك؟ قال: قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه. قالت: ويحك! لا يمكننى ذلك. قال: بأبى أنت، فارضى عنه حتى يعطينى، ثم عودى إلى ما عوّدك الله من سوء الخلق! فتضحك منه وترضى عن مصعب. نعم وتذكر كيف صارمت مصعباً ذات يوم فشق ذلك عليها وعليه، وكان لمصعب حرب فخرج إليها، ثم عاد وقد ظفر، فشكت مصارمته إلى مولاتها فقالت لها: الآن يصلح أن تخرجى إليه، فخرجت فهنأته بالفتح، وجعلت تمسح التراب عن وجهه، فقال لها مصعب: إنى أشفق عليك من رائحة الحديد. فقالت لهو عندى أطيب من ريح المسك الأذفر.

ذكرت عائشة هذا كله، ومرت بها خواطره مسرعة حين كانت تنظر إلى صورتها الرائعة البارعة التى كانت تردها إليها المرآة. وإنها لفى ذلك إذ تنقطع خواطرها فجأة، فهذا عبد الله بن أبى فروة كاتب مصعب يقبل ومعه أسودان. فيستأذن عليها،

فتقول له : أفى مثل هذه الساعة المتقدمة من الليل ؟ فيقول لها : نعم . فإذا أدخلته قال للأسودين : احفرا ها هنا بئرا ، فتنظر عائشة دهشة ولا تقول شيئاً . ولكن جاريتها تقول له : وما تصنع بالبئر ؟ فيقول لها : شؤم مولاتك ! أمرنى هذا الفاجر أن أدفنها حية وهو أسفك خلق الله لدم حرام . فتسأله عائشة فى إلحاح أن ينظرها حتى تذهب إليه . ولكنه يقول لها فى لهجة حازمة صارمة : هيهات هيهات ، لا سبيل إلى ذلك . ويأمر الأسودين أن يحفرا . ويخيم على المكان سكون رهيب لا يضطرب فيه إلا هاتان الذراعان اللتان ترتفعان بالمعول[1] فى الجو قويتين ، ثم تهويان به إلى الأرض محتفرتين ، ثم تدعانه إلى المسحاة[2] ، فتغرفان بها التراب فى المكتل[3] . وعائشة وجواريها يرقبن حركة الأسودين فى ذعر وخوف وفى حزن وإشفاق . وعبد الله بن أبى فروة قائم واجم كأنه الشيطان . وربما انطلق لسانه ببعض الألفاظ العنيفة فى لهجة قاسية وصوت قاطع يحث الأسودين على الإسراع فى الحفر والجد فيما يقومان به من عمل . فإذا رأت عائشة من عبد الله هذا الجد الصارم ، وهذا الحزم العنيف ، وهذه

---

(١) المعول : الفأس العظيمة .

(٢) المسحاة : المجرفة التى يجرف بها التراب والطين من على وجه الأرض .

(٣) المكتل : زنبيل من خوص .

الشدة التى لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجدال ، جلست كأنها التمثال لا تأتى حركة ولا تنطق بكلمة ، وإنما هى دموع غزار تنهل فى صمت على وجه كان جميلا ناضراً فأدركه هذا الذبول المؤلم الذى يدرك وجوه الناس حين يعصف بقلوبهم خطب أليم. ولكنها تقطع هذا الصمت ، فتقول لعبد الله بن أبى فروة فى صوت تخنقه العبرة : إنك لقاتلى ما منه بد ؟ فيقول لها فى صوت يملؤه الحزم ويشيع فيه الإصرار ؛ نعم . وإنى لأعلم أن الله سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب ، فتقول له : وفى أى شىء غضبه ؟ فيقول لها : فى امتناعك عليه ، وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره . فقد جن . فتقول له : أنشدك الله إلا عاودته . فيقول لها : إنى أخاف أن يقتلنى . وترقب عائشة الأسودين وهما ماضيان فى اضطراب يديهما بالمعول ارتفاعاً فى الجو وهبوطاً إلى الأرض فتزداد بكاء ونحيباً ، وتشاركها جواريها بكاءها ونحيبها . فإذا رأى عبد الله ابن أبى فروة هذا كله قال لعائشة : لقد رققت لك ، وأقسم لها أنه يغرر بنفسه ، ثم قال لها : فما أقول ؟ . قالت : تضمن عنى ألا أعود أبداً . قال وهو يبتسم : فمالى عندك ؟ قالت : قيام بحقك ما عشت . قال : فأعطينى المواثيق . فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما . وأتى مصعبا فأخبره . فقال له : استوثق

منها بالأيمان . ويعود إليها عبد الله فيستوثق منها ، ويأمر الأسودين أن يسويا الأرض كما كانت . ثم يودعها وينصرف فإذا أقبل عليها مصعب بعد ساعة استقبلته باكية حزينة ، ولكنه يدنو منها لا يقول شيئاً . وإنما يضمها بين ذراعيه ، ويقبلها قبلات تنقل إلى قلبها بعض ما فى قلبه من حب ووفاء ، ثم ما يشعران بعد ذلك إلا بأنهما قد قضيا ساعة كانت خير ما قدمته لهما الحياة .

١٦

وتنفق عائشة مع مصعب أربعة أعوام ، أو أقل من ذلك قليلا ، أو أكثر من ذلك قليلا . ثم تمسى ذات ليلة مكتئبة محزونة . فقد أخبرها زوجها مصعب بأن أصحابه قد خذلوه طمعاً فى هدايا بنى أمية ، وأن الدائرة كادت تدور عليه . وقد كان مصعب بعائشة حفياً ، وعليها حريصاً ، يكرمها ويؤثرها بالخير ، ويمنحها من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم ، وكأنه كان قد جمع فى قلبه كل ما كان يستطيع أن يجمعه فيه من الحب والحنان ، حتى إذا ضم عائشة إليه أخذ يمنحها هذا الحب ، ويختصها بهذا الحنان . وكانت عائشة تحس ذلك وتنعم

به . وكانت من أجل ذلك تحب زوجها وتطمئن إليه . بل تطمع فيه ، وتبلغ بها الجراءة أن تكشف وجهها أمام الناس ، فإذا نهاها عن ذلك أبت عليه وقالت : إن الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم ، فما كنتُ لأستره . والله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد . فليس غريباً أن تدور الدائرة على مصعب فى حروبه ، فتكتئب عائشة ، ويمتلئ قلبها حزناً وألماً . وما يمنعها أن تكتئب ؟ وما يمنعها أن تحزن وتألم؟ وقد كان مصعب فتى من هؤلاء الفتيان الذين يمثلون أحلامها وآمالها ، وكانت تعيش فى ظله عيشاً أقل ما يوصف به أنه كان يسراً كله ، ودعة كله ، وكان حباً كله ، وحناناً كله . ويمسى مصعب ذات ليلة مثقلا مكدوداً ، يحس بأن آخر عهده بالدنيا قد آن . وأنه ذاهب إلى الحرب ، فميت فى ساحة القتال . هنالك فكر مصعب فى عائشة ، وفى هذه الأيام اللذيذة الحلوة التى أنفقها معها ، جاهداً أن يوفر لها الحياة السعيدة الناعمة ، والعيش الباسم الهادئ المطمئن . يخرج إلى حروبه لبنى أمية ، ويعود من حروبه لبنى أمية ، فلا يفكر إلا فيها ، وفى إتاحة الحياة السعيدة لها . وهى فى هذا كله تنعم ببره بها ، وعطفه عليها فتحبه وتؤثره . وتصفيه المودة ، وتصدقه الولاء . نعم وفكر مصعب فى نفسه كيف أحب عائشة أشد الحب وأعنفه ، وآثرها على

الناس جميعاً ، وآثرها على نفسه قبل أن يؤثرها على الناس . ثم لم يمنعه هذا الحب وهذا الإيثار من أن يتركها، ويخرج لقتال بنى أمية ، فيعرض نفسه للموت ، أو لما هو شر من الموت ، من حياة مشوهة يعيش فيها كلا على الناس. نعم وفكر مصعب فى بنى أمية كيف بعثوا إليه رسولهم محمد بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقين ما دام حياً ، وصلة من المال تبلغ الألوف وكيف أبى عليهم ، بل كيف سخر منهم ، وعلمهم أنه قد عرف نفسه ، وثقفها وهذبها ورفعها من الصفو والعفو إلى حيث طهرت من دنس المنافع الوضيعة وبرئت من أوضار الحياة الخسيسة ، وعاشت فى جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلا . وعلمهم أن له ضميراً حراً لا ينبغى أن يكون موضوعاً للمساومة ، ولا سلعة تعرض للتجارة ، وأن الإنسان الحر خليق أن يعرف كيف يستقبل إلمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور ، مبتسما للخطب لأنه زائل ، وساخراً من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وأنه من أجل ذلك لا يريد أن يشترى الراحة والدعة واللين بثمن بخس دراهم تعد أو لا تعد . فكر مصعب فى هذا كله ، فرضى عن نفسه أشد الرضا ، وحزن على نفسه أشد الحزن . ولكن عائشة تدخل عليه فتجده مطرقاً محزوناً ، فتنكر إطراقه وحزنه ، وتسأله عن هذا التفكير ما أصله وما مصدره ؟ !

قال مصعب وقد رفع إليها رأساً حزيناً ، ونظر إليها نظرة كلها حب وكلها عطف وكلها حنان : إن أصحابى قد خذلونى طمعاً فى هدايا بنى أمية . وإن الدائرة كادت تدور علىّ ، وإنى لأحس بأنى ذاهب إلى الحرب فغير عائد . هنالك حزنت عائشة أشد الحزن ، واكتأبت أعظم اكتئاب ، ولكنها تماسكت وتمالكت نفسها ، وحاولت أن تبعد عنه هذه الأفكار السوداء التى تلح عليه أو يلح عليها ، وجعلت تبشره بالنصر القريب والعمر البعيد وتقول له فيما تقول : إن الخطوب والمحن لا تلين إلا قناة الرجل الضعيف ، ولا تفل إلا حد الرجل الجبان ، وما أكثر الخطوب والمحن التى ألمت بك وألحت عليك ، فلم تلن قناتك ولم تفلل حدك . وإنما تركتك كما لقيتك صلباً جلداً حازماً ماضى العزم كأنك الشجرة العظيمة الثابتة التى تختلف عليها العواصف وتلح عليها الزوابع فلا تضطرب ولا تميل . ويطرق مصعب إطراقة خفيفة ، ثم يرفع رأسه ويقول لها فى صوت هادئ حزين : إنى لا أخشى الموت يا عائشة ، وإن الموت لأحب إلىّ من أن أسلم لبنى أمية ، ولكنى أحبك حباً يحبب إلىّ الحياة ويرغبنى فيها . إيه يا عائشة ! إنى لمؤرق الليل قلق النهار مفرق النفس منذ أن خذلنى أصحابى ، وإن الهزيمة محققة ، وإن الموت أمر لا بد منه . أشيرى ماذا ترين ؟ قالت عائشة : هون عليك ، ولا تغل فى

الخوف ولا تسرف فى الإشفاق ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . إنى لا أقول لك إلا ما قالته خديجة لمحمد : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر . ويرضى مصعب بما يسمع ، ويسعد مصعب بما يرى ، وينسى ما كان يهمه وينغصه . وترضى عائشة فتتحدث كثيراً . وتسمع كثيراً ، وتضحك زوجها بما تعرف من الملح والنوادر . ثم تقبل إليه آخر الأمر باسمة هادئة ، فتقول له فى صوت متكسر بعض التكسر فاتر بعض الفتور : قد آن لك أن تستريح إلى النوم فيما أظن . هلم إلى مضجعك أيها الأمير العزيز .

١٧

وأقبل النهار من الغد فرأى مصعباً وقد أفاق من نوم غير عميق ، روعته فيه الأحلام . وأزعجته هذه الأرواح الهائمة المشردة التى تنطلق فى الفضاء إذا أقبل الليل ، وهى تجمجم ببعض الألفاظ الخفية التى تصل إلى نفوس الرقود كما تصل إلى نفوس الأيقاظ ، فيفهمون عنها أحياناً ، ويخطئون الفهم عنها فى

أكثر الأحيان . وكان مصعب خليقاً أن يمضى إلى عائشة فيودعها ، ويملأ عينيه من جمالها ، وأذنيه من حديثها ، ونفسه وقلبه من شخصها ، ويتزود من عبير عرار نجد فما بعد هذا الصبح من عرار . ولكنه آثر أن يخرج إلى الحرب دون أن يودع عائشة فقد كان يرى أنه سيجد فى هذا الوداع آلاماً يحسن أن يتجنبها ، وأن يقبل على حربه بنفس مشرقة ، وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شىء . ومن يدرى ؟ فلعله أحس من نفسه ضعفاً عن احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذه الزوج التى فنى فيها ، وفنيت فيه ، فعرف الحب حين يبلغ أشد أطواره عنفاً ، وعرف الحب حين يبلغ أعظم أطواره رقة وليناً ولطفاً . ويدخل مصعب على زوجه الأخرى سكينة بنت الحسين فينزع عنه ثيابه ، ويلبس غلالة ، ويتوشح بثوب ويأخذ سيفه. فتعلم سكينة أنه لا يريد أن يرجع فتصيح من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب . فيلتفت إليها ويقول لها : أوكل هذا لى فى قلبك ؟ ! فتقول له فى صوت مضطرب ممزق ، كاد يتمزق له قلبه : إى والله وما أخفى أكثر . وتحاول أن تمنعه من الخروج . ولكنه ينظر إليها نظرة طويلة حزينة ويقول لها : لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك لكان لى ولك حال . ثم يستخلص نفسه منها فى كثير من الجهد الشاق العنيف ، ويتركها وقد هوت إلى

الأرض كأنها البناء المتهدم ، والرعشة السريعة تهز جسمها هزاً ودموعها الغزار تنهمر انهماراً . وأنفاسها العنيفة المتقطعة تحتبس فى صدرها احتباساً . وتقبل عليها جواريها فيجثون إلى جانبها ، ويحاولن أن يرددن إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعهن ذلك ، فإذا مضى وقت غير قصير ثابت إليها نفسها ، وراجعها رشدها .

وكانت عائشة قد أفاقت من نومها ومضت إلى غرفة مصعب وكانت تقدر أنها ستراه ما زال مسلماً نفسه إلى النوم ، مطمئناً إلى صدره الوثير ، فتستله منه بيدها الرخصة الناعمة ، وصوتها العذب الجميل ، ووجهها المشرق الوضاء . ونظرتها الحلوة الساحرة . ولكنها ترى — ويا هول ما ترى — ترى الغرفة خالية من مصعب ، وترى بابها إلى الطنف مفتوحاً . فتستيقن أنه قد أرق من ليلته هذه . وتستيقن أنه قد استيقظ مبكراً ، فخرج إلى حربه مع الصبح ، وإذا هى تذكر ما قاله لها من أنه ذاهب إلى الحرب فغير عائد . وإذا هذا الحديث يثير فيها ما يثير من شجون وأحزان يمتلئ بها قلبها ، ويغرق فيها ضميرها وتلتبس لها الأمور على نفسها ، ثم لا تلبث أن تستأثر بحسها الظاهر ، فتجرى فى جسمها رعدة خفيفة أول الأمر ، ثم عنيفة بعد ذلك . لم تهدئها عنها إلا هذه الدموع التى انحدرت من عينيها غزاراً .

ولم ينتصف النهار على هاتين الزوجين البائستين حتى انتهى إليهما هذا النبأ الذى هدهما هداً ، وملأ قلبيهما جزعاً وهلعاً ، وهو أن مصعباً قد تفرق عنه أصحابه حتى بقى فى سبعة أنفس منهم ولداه عيسى وعَكاشة . وأنه أشار على ولديه باعتزال المعركة ، ولكنهما أبيا ، فقال لابنه عيسى : تقدّم إذن أحتسبك . فتقدم فقتل . ولما رأى عكاشة الموت فر ونجا بنفسه . وظل هو يقاتل ويناضل ، ويبلى فى قتاله ونضاله أحسن البلاء ، حتى أثخن بالجراح . وحينئذ ضربه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فصرعه ، واحتز رأسه وحملها إلى عبد الملك بن مروان .

جلس عبد الملك بن مروان ذات يوم فى جماعة من أصحابه وقد استتب له الأمر ، يسألهم من أشجع الناس ؟ وهم يروغون فى الجواب فقال لهم : بل أشجع الناس مصعب بن الزبير ، كانت عنده عقيلتا قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . ثم هو أكثر الناس مالا . جعلت له الأمان وولاية العراقين ، وعلم أنى سأفى له للمودة التى بيننا ، فحمى أنفاً وأبى ، وقاتل حتى قتل .

١٨

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر رجلا تيمياً عظيم المكانة رفيع المنزلة ، تشرق فى وجهه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة . يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار . لا يخاف شيئاً ولا يشك فى شيء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وكان فارساً شجاعاً مقداماً فتنته حياة الحروب فألقى بنفسه فى أتونها المُستَعِر ، وعرف كيف يكون إفناء القوة وكيف يكون دحر الأعداء . كان قائداً من قواد مصعب بن الزبير . وقد ولاه مصعب حرب الأزارقة من الخوارج فانتصر عليهم انتصاراً باهراً ، وهزمهم هزيمة منكرة واستعمله مصعب على فارس فدبر أمورها تدبيراً حسناً ، وسار فيها سيرة قويمة . فلما قتل مصعب حزن عليه أشد الحزن ، ولكنه رأى أن الأمر صائر إلى بنى أمية ، وأن الدنيا لائذة بهم ، وأن السلطان منته إليهم . هنالك لم يجد بداً من أن يوادعهم ويصالحهم ويتودد لهم ويتقرب إليهم . فأقبل على عبد الملك بن مروان ذات يوم فأخلص له الطاعة ومنحه الولاء . ومنذ ذلك اليوم رأى الأمويون

بين صفوفهم قائداً من أقوى القواد قوة وأشدهم أيداً وأعظمهم بأساً وأبعدهم صوتاً وأنفذهم بصيرة ، إذا ألمت الكوارث أو فاجأت الحوادث .

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر أيضاً مفتوناً بعائشة بنت طلحة . وأى فتى من فتيان الأرستقراطية الحجازية لم يكن مفتوناً بعائشة بنت طلحة ؟ كان عمر بن عبيد الله مفتوناً بها . ومن يدرى ؟ فلعله كان يعرفها معرفة قوية حين كانا صبيين ، وحين جاوزا طور الصبا إلى الشباب . فكلاهما من تيم . ولعل هذه القرابة قد أتاحت لهما أن يلتقيا حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، وحين يقبل الليل . فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان ، من هذه الأحاديث الفارغة التى لا تؤدى شيئاً ولا تدل على شىء ، وإنما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم . ولعله كان ماكراً ماهراً يعرف كيف ينتهز الفرص ويختلس الوسائل ، فكان يشيع فى أحاديثه هذه الفارغة بين حين وحين ما يملؤها ، وكان يسلك إلى غايته طرقاً مختلفة ملتوية . وكان يعينه على بلوغ غايته هذه هذا الشباب النضر الذى يجرى فيهما كما يجرى الماء فى الغصن الرطب . فلا تكاد الفتاة تنطق بكلمة حتى يجرى فيها الشباب النضر عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من سمع الفتى وقلبه ونفسه موقعاً غير مألوف . ولا يكاد

الفتى يأتى حركة حتى يجرى فيها الشباب النضر رشاقة غير مألوفة ويوقعها من عين الفتاة وقلبها ونفسها موقعاً غير مألوف أيضاً . وإذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة يريد أن تتكرر ، وإذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة تريد أن تتكرر أيضاً ، وإذا الفتى مشغول بالفتاة ، وإذا الفتاة مشغولة بالفتى .

ومن يدرى أيضاً ؟ فلعل عمر بن عبيد الله هذا كان الفتى الذى نظرت إليه عائشة ذات يوم وداعبت الأحلام حين نظرت إليه ، وكانت تنتظر أن يقبل عليها فيخطفها من الحياة ذات مساء ويرتفع بها إلى جو بعيد جداً فى السماء فتعيش معه عيشة راضية ، وتسعد به سعادة موفورة . ولكن الغريب أن هذا الفتى أو غيره من الذين يمثلون أحلام عائشة وآمالها لم يقبل عليها ولم يسع إليها ، ولعله كان ينتظر الوقت الملائم والفرصة السانحة ، فسبقه إلى هذا الوقت وانتهز من دونه هذه الفرصة فتى آخر ليس بينه وبين أحلام عائشة وآمالها صلة ولا سبب ، لا يروقها منظره ولا يعجبها حديثه ولا تميل إلى الحياة معه ، بل لا تميل إلى لقائه والتحدث إليه ، وهو ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وإذا كان هذا كله صحيحاً . وأكبر الظن أنه صحيح فتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ قلب هذين الحبيبين من حزن لاذع ، وألم مُمِض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له . فقد فقد

كل منهما صاحبه الذى يحبه ويؤثره ويخلص له الود ويصدقه الولاء . فأما عائشة فقد رأت نفسها وقد اتصلت الأسباب بينها وبين من تكره ، وانقطعت الأسباب بينها وبين من تحب . وإذا هى تحاول أن تصل ما انقطع وأن تقطع ما اتصل فلا تجد إلى شىء من ذلك سبيلا . وإذا هذا كله يثير فى نفسها ما يثير من الحزن والأسى واللوعة والحسرة واليأس والقنوط . وإذا هى تجفو زوجها عبد الله وتتنكر له وتنغص عليه حتى تجعل حياته جحيما لا يطاق . وأما عمر بن عبيد الله فقد نزلت به هذه الملمة فبغضت إليه الحياة ، وألقت بينه وبين الأمل حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً ، ولكنه كان قوى النفس حازماً ضابطاً لأمره . فلم يظهر الناس من حزنه وكآبته ويأسه على شىء . وكان أشد ما يؤثر فى نفسه هذه الأنباء التى كانت تحمل إليه جزع عائشة وهلعها ، وأنها لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود ، ولا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل ، وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً . وأنها لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها إرسالا . وأنها تنال الذين فكروا فى هذا الزواج وأشاروا به بكثير من لاذع القول وقارس الكلام . فهى لا تفهم ولا يمكن أن تفهم أن يتخذ أهلها لها زوجاً يفرضونه عليها فرضاً ، ويلزمونها به إلزاماً . بل هى لا تفهم ولا يمكن أن تفهم أن يفكر أهلها وحدهم فى أمر زواجها ، ويستأثروا به من

دونها ، ولا يشركوها فيما يكون بينهم من تفكير أو حديث . كأن الأمر يعنيهم أكثر مما يعنيها ، ويمسهم أكثر مما يمسها ، وهى من أجل ذلك ساخطة أعظم السخط ، محزونة أشد الحزن تثير فى الجو من حولها حزناً ساخطاً وسخطاً حزيناً . وكان عمر بن عبيد الله يطيل التفكير فى هذه الأنباء فكانت هذه الأنباء تملأ قلبه الثائر المضطرب راحة وأمناً وهدوء . وتملأ نفسه المفجوعة الجزعة طمأنينة ودعة واستقراراً . وكان الشعور الذى يجده فى أثناء ذلك شعوراً غريباً حقاً . فقد كان يحس حزناً يشتد على قلبه حتى يوشك أن يفطره ، ثم يجد نعمة وراحة تردان عنه هذا الحزن رداً . ثم يجد بشراً يغمر قلبه ونفسه وعقله ويكاد يخرجه عن طوره ثم يحس كأنه يفيق من سكرات لا عهد له بها . وإذا دموع غزار تنهمر من عينين لم تتعودا إرسال الدموع . ومن الحق أنه كان يجاهد ليخفى حبه هذا العنيف على الناس . وربما حدثته نفسه أن من العبث أن يفكر فيها ، فقد انقطعت الأسباب بينها وبينه . وأصبح لا سبيل له إليها ، ولا سبيل لها إليه . بل لعل من الإثم أن يفكر فيها ، فبينها وبين زوجها عقدة فرض الله عليه أن يرعى حرماتها . ولكنه لم يكن ليستطيع أن يمتنع على هذا التفكير . ومتى كانت أمور الحب تخضع للإرادة ؟ أو كان العقل يستطيع

أن ينظمها ويدبرها ؟ كان إذن يفكر فيها مرغماً لأنه لا يستطيع إلا أن يفكر فيها . ولعله كان يفكر فى أن يلقاها ، وما يمنعه من ذلك ؟ وهى فتاة برزة لا تكره أن تظهر للرجال ، وتأخذ معهم فى ألوان الحديث . وإذن فليختلف إليها ، وليستأنف التحدث إليها والاستماع لها ، وليمتعها من حديثه ونظراته بما كان يمتعها من قبل . وليستمتع من حديثها ونظراتها بما كان يستمتع به من قبل . ولكن إلى متى هذا العذاب المتصل والحرمان المتجدد والصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟ ! فكر يا عمر بن عبيد الله فقد آن لك أن تفكر ، واعزم أمرك فقد آن لك أن تعزمه ، فإن هذا الحب اليائس ليس لأحد فيه خير ، وليس لأحد فيه غناء ولم يبق لك إلى احتماله سبيل . وقد فكر عمر بن عبيد الله وما كان فى حاجة إلى التفكير . وقد ضاق ذرعاً بهذا الحب ، واستيأس من غايته حتى أصبح يذوده عن نفسه ، وحتى أصبح يفكر فى الزواج من فتاة يجد عندها ما كان يحب أن يجده عند عائشة من الرضى والسعادة ونعمة البال ورخاء العيش وابتسام الحياة .

وقد تزوج عمر بن عبيد الله من رملة بنت عبد الله بن خلف ، فتاة خزاعية ذات جسم رائع بارع ، كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ، ويتأنق ويستأنى بعمله ، فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة العيون والقلوب جميعاً . ولكنها

كانت على ذلك جهمة الوجه عظيمة الأنف . وكان عمر بن عبيد الله يظن أنه سيستقبل بهذا الزواج حياة باسمة مبتهجة ولكنه لا يكاد يجلس إلى زوجه ويأخذ معها فى بعض الحديث حتى يرى نفسه مفكراً فى عائشة ، وإذا هو يفصّل ما فى زوجه من مقابح ويوازن بينها وبين ما فى عائشة من محاسن . يوازن بين الأنف والأنف ، وبين الفم والفم ، وبين الوجه والوجه . وإذا هذه المقارنة تنغص عليه حياته لأنها تضطره إلى أن يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن عائشة تمتاز على رملة . وإذا هو يحس بأنه قد حرم من عائشة كل الحرمان . وإذا هو مضطر إلى الفرار من زوجه ، يلتمس فى بيت من بيوت الله هذه السكينة التى ينزلها الله على القلوب ، فيملؤها رحمة وعطفاً واطمئناناً للأحداث ، وعزاء عن الملمات ، وثباتاً للخطوب .

والأيام تمضى والأيام تجىء ، ويثوب عمر بن عبيد الله إلى زوجه رملة وابنه طلحة كأحسن ما يثوب الزوج الصالح والأب العطوف . وتتأيم عائشة بعد موت زوجها عبد الله فلا يفكر عمر ابن عبيد الله فى الزواج منها ، ويتزوجها مصعب بن الزبير ويكون عمر بن عبيد الله من قواد مصعب وخلصائه . ثم يقتل مصعب ، وينتهى الأمر للأمويين ، وينضم عمر بن عبيد الله إليهم ، ويعمل فى خدمة عبد الملك بن مروان كما كان يعمل فى

خدمة مصعب بن الزبير .

ويقبل عمر بن عبيد الله ذات يوم على العراق قادماً من الشام ، فلا يكاد ينزل الكوفة ويأخذ مع أهلها فى بعض الحديث حتى يعلم – وليته لم يعلم – ويفهم – وليته لم يفهم – أن عائشة بنت طلحة قد خطبت لبشر بن مروان . وأنها ستزف إليه بعد أيام . وكان أهل الكوفة يفيضون فيما سيسمعون من ألوان الغناء ، ويتحدثون عن الزينة التى ستقام . وعن الولائم التى ستولم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وعن الموسيقى التى ستطربهم فى الصباح ، وتطربهم فى المساء . وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل ، والذين يدعون إليه من الشام ومن الحجاز ، وفيهم السادة والكبراء وفيهم عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين .

كانوا يفيضون فى هذا كله ، ويجدون فى الإفاضة فى هذا كله لذة يتعجلون بها الحوادث ، ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج. وكان عمر بن عبيد الله يسمع لأحاديثهم فيفهمها أو لا يفهمها ، ويعى أقلها ، ويهمل أكثرها ، ويفكر فيما لم يكن بد من أن يفكر فيه . وهوأن هؤلاء الأمويين قد قتلوا صديقه وأميره مصعب بن الزبير ، ولم يكفهم أن يستولوا على إمارته . بل يريدون أن ينتهكوا حرمته فى زوجه عائشة ، ويريدون أن ينتهكوها جهرة بحجة الزواج .

نعم ولن يكون رجل من أصدقاء مصعب وذوى مودته زوجاً لعائشة ، ولكن الذى سيكون زوجاً لها رجل من ألد أعدائه الذين قتلوه وهو بشر بن مروان .

ولم يكن يسأل نفسه كيف قبلت عائشة هذه الخطبة ؟ وهى تعلم حق العلم أن بنى مروان هم قتلة زوجها مصعب بن الزبير . بل لم يكن يسأل نفسه كيف تجد عائشة موقفه منها حين يحاول أن يفسخ هذه الخطبة ، وأن يصد عنها زواج هذا الرجل الآثم الذى اشترك مع ذوى قرابته فى قتل زوجها مصعب بن الزبير .

لم يكن يسأل نفسه عن شىء من هذا ولكنه كان ثائراً أشد الثورة وأعنفها مؤمناً أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ، مصمماً أشد التصميم على ألا يكون مهما تتهيأ له الظروف ، ومهما تتظاهر عليه القوى .

ثم لم يكن يسأل نفسه عن كل هذه الخواطر أصادقة هى أم كاذبة ؟ أوفى هو لصديقه مصعب أم أنه يتخذ هذه الخواطر حجة وتعلة يخفى بها على نفسه ما لا يحب أن تظهر عليه ، ويستر بها دون قلبه ما لا يجد الشجاعة على أن يواجهها به فى صراحة وجلاء .

وكثيراً ما كان يخطر له أنه يحمى عائشة من رجل ليس أهلاً لها ، وكثيراً ما كان يقدر أن قيامه دون هذا الأمر فرض

يأخذه به الوفاء للصديق الذى مات ، والنجدة للفتاة التى يوشك الخطر أن يغتالها . وكان من أجل ذلك يرى نفسه رجلا خيراً مؤثراً ، ولو أنه نظر فى نفسه لعرف أنه قد يكون رجلا خيراً ، ولكنه ليس من الإيثار فى شىء ، وإنما هو من الأثرة فى كل شىء . ولو أنه تعمق قلبه وتبين قرارة ضميره لعرف أنه لم يكن وفياً لأحد ولا منجداً لأحد ، وإنما هو الحب القديم قد عاوده . وإنما هو الشوق القديم كان نائماً فاستيقظ . وإنما هى الأثرة تريد أن تظهر فى مظهر الإيثار . ولكنه لم ينظر فى نفسه ، ولم يتعمق قلبه ولم يتبين قرارة ضميره ، لأنه كان مشغولا عن هذا كله بفسخ هذه الخطبة وإفساد هذا الزواج .

١٩

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة لم تفسد من أمره شيئاً ، ولم تغير من حياته مع الأمويين قليلا ولا كثيراً . فقد كان يصبح ويمسى ويذهب ويجىء ويلقى بشر بن مروان ، وغير بشر بن مروان من الأمويين فلا يرون منه إلا الوجه المشرق والثغر الباسم . ولا يجدون منه إلا الود الخالص والولاء الصادق . وكأن نفسه ليست ثائرة ولا جامحة ولا مضطربة . وكثيراً ما كان يفكر

فى هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين مختلفتين أشد الاختلاف ، متناقضتين أعظم التناقض : إحداهما هادئة مطمئنة ، تلقى الناس وتتحدث إليهم وتسمع منهم ،وتظهر الفرح والمرح وتظهر الكآبة والحزن . والأخرى ثورة كلها، وحزن كلها، لا يعرف الهدوء أو الفرح إليها سبيلا ، ولا تسمع لحديث الذين يسعون من حولها ، ولا تحس أن أحداً يسعى من حولها ، وإنما تنتبذ ناحية من نواحى الضمير ، تبحث وتفكر وتمضى فى تدبير ما يحزن ويسوء .

ويدنو يوم الزفاف ويقرب كل شىء من غايته ، ويجد عمر بن عبيد الله نفسه ذات يوم مقبلا على عائشة بنت طلحة . وكان النهار قد تقدم حتى أدركته هذه الشيخوخة التى تسبغ على الأصيل أو يسبغ عليها الأصيل رداء شاحباً حزيناً يبعث فى النفوس شحوباً وحزناً . ولا يكاد عمر بن عبيد الله يدنو من الدار حتى تلقاه جارية لعائشة ، وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ، ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط غريب ، فيه عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر . فلما رأته لم تنكره ، ولكنها لم تغل فى الترحيب به وإنما نظرت إليه من الرأس إلى القدم ، ثم قالت له فى صوتها النحيف : ها أنت ذا تقبل . لقد بعد العهد بك منذ أن كنت

تأتينا أيام مصعب . ولكنا كنا ننتظرك ، وما شككنا فى أنك ستأتينا إلى هذا البيت . ولكن ما أخّرك عنا هذه المدة الطويلة ؟ قال لها مداعباً : فقد كنتم فى حاجة إلىّ إذن ؟ قالت له متضاحكة : كنا فى حاجة إليك لنسألك عن رأيك فى خطبة بشر بن مروان لعائشة . قال لها وقد اندفع فى ضحك يصور الغيظ أكثر مما يصور الرضا : ومتى كنت مستشاراً فى أمور الخطبة والزواج ؟ قالت له عابثة تريد أن تظهر فى مظهر الجادة : ألست أدنى الناس إليها صلة وأمسهم بها قرابة ؟ ومن يدرى ؟ فلعلك أشدهم لها حباً وأعظمهم لها إيثاراً . قال لها وهو يتكلف الغضب : ماذا تقولين ؟ قالت له : أقول الحق الذى تعرفه وتتحدث به إلى نفسك إذا خلوت إليها أو خلت إليك . ولكنك تأبى أن تظهرنى عليه كأنى فى حاجة إلى أن تظهرنى عليه . قال لها : فقد حدثتك عائشة إذن عن حبنا القديم ؟ قالت له : لم تحدثنى عائشة بشىء ، ولم تخبرنى عن شىء . ولست أنا فى حاجة إلى الألفاظ والجمل لأعرف أمر هذا الحب . فقد رأيته مئات من المرات فى نبرات الصوت . وفى لحظات الطرف ، وفى حركات الجسم ، وفى الإسراع حين يحسن الإسراع ، والإبطاء حين ينبغى الإبطاء ، وفى النشاط حين يجب النشاط ، والأناة حين تستحب الأناة . فى هذه الأشياء اليسيرة التى تحس وتلحظ ،

ولكنها لا تكاد تثبت للتصوير والتعبير ، لأنها أيسر من ذلك وأدق . قال لها وهو ينظر أمامه لا يريد أن يرى شيئاً وإنما يفكر تفكيراً عميقاً : والآن ماذا ترين ؟ قالت له : بل ماذا ترى أنت؟ قال لها : أرى أنى خير من بشر بن مروان ، وأنى أحق بعائشة منه ، وأن هذا الزواج لن يكون مهما تتهيأ له الظروف وتتظاهر عليه القوى . قالت له : أما أنك خير من بشر بن مروان ... ثم أرسلت ضحكة عريضة سمعها من غير شك أبعد من كان فى الطريق مكاناً ، وسمعتها من غير شك عائشة بنت طلحة داخل الدار ، وانتشر معها فى الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون . حتى إذا فرغت من ضحكتها وجرت الهواء إلى جوفها جراً هو أشبه بالشهيق المثير قالت : أما أنك خير من بشر بن مروان فأمر لا يقبل الشك ولا يحسن فيه المراء ، وآية ذلك أن النساء يتحدثن عنك أحاديث تملؤها المبالغة ، ويشيع فيها العبث والمجون ، وهن جميعاً يحسدن زوجك رملة بنت عبد الله . ثم أرسلت من فمها شهيقاً منكراً أتبعته بشخير منكر ، ما أشك فى أن المارين فى الطريق فى ذلك الوقت قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى ضحكهم إليهما حيث كانا فزادها مرحاً ونشاطاً وملأه خزياً واستحياء ، ثم قالت : وأما أنك أحق بعائشة منه ، فأمرٌ قد يكون لك فيه وجه من حق . فبينك وبينها حب قديم طال عليه

الزمن ، وأهمل إهمالا متصلا ، ولم تنقطع عنه مع ذلك مادة الحياة ، فمضى ينمو فى غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب ، حتى أصبح من العسير عليك أن تجد فيه سبيلا إلى ما تحب من اللذة والمتاع . وعليك أن تتكلف التعب ، وتحتمل الألم فى سبيل هذه اللذة التى تريدها ، والمتاع الذى تلتمسه ، وعليك أن تزيل ما يقوم فى طريقك من عقاب وصعاب ، غير مبال بما قد تتعرض له من أذى قليل أو كثير . قال لها : ومتى كانت الصعاب والعقاب تحول بينى وبين بلوغ غايتى ؟ إنى لأوثر الطريق الوعرة الضيقة على الطريق الممهدة الواسعة . ومن يدرى ؟ فلعل خطبة بشر بن مروان لعائشة هى التى أغرتنى بالزواج منها ، وذكرتنى بهذا الحب القديم المهمل الذى طال عليه الزمن ، وبعد به العهد ، وأثارت فى نفسى شيئاً من النشاط والغيرة ، ودفعتنى إلى أن أخاطر بالسعى فى فسخ هذه الخطبة وإفساد هذا الزواج . ولقد فكرت كثيراً فرأيت أن خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية هو أن أستعينك أنت عليها . فأنت أقدرُ الناس على الاستئثار بعقل عائشة ، وهى لن تعصى لك مشورة ولن تخالف لك عن رأى . تستطيعين أن تذكريها بحبنا هذا القديم ، وأن تقولى لها : إنى أبيح لك كل شىء إلا أن تزعمى أن هذا الحب الذى بينكما قد أماته الإهمال وأذواه طول الزمن فلم يبق له حظ من حياة .

ولم تمض على ذلك أيام حتى لم يكن للناس حديث إلا عائشة بنت طلحة ، وأنها كانت تحب عمر بن عبيد الله بن معمر ومن أجله ردت خطبة بشر بن مروان .

٢٠

وهذه عائشة كما عرفها عمر بن عبيد الله رائعة بارعة ساحرة باهرة ، تلقاه مشرقة الوجه باسمة الثغر ، وتقبل عليه رفيقة به عطوفاً عليه. وهذا هو لا يكاد يراها حتى يسرع إليها الخطوة ، كأنما يدفع إليها دفعاً ، فإذا حياها وردت عليه تحيته بأحسن منها جلس إليها يحدثها ويسمع منها ، كأنما يعود إليها بعد ساعة من هذه الساعات التى كان يقضيها بعيداً عنها حين كانا صَبِيَّيْن وحين جاوزا طور الصبا إلى الشباب . أو كأنه يعود إليها بعد أيام من هذه الأيام التى كان يقضيها بعيداً عنها حين كانت زوجاً لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وحين كانت زوجاً لمصعب بن الزبير . وإنهما ليتمثلان حياتهما الحالية كلها كأنها قد غمرتهما ، وكأنهما قد رجعا إلى مثل ما كانا عليه منذ أعوام صبيين لا يلتقيان إلا على الضحك والعبث ، ولا يأخذان إلا فى

اللهو واللعب ، لا يعرفان الهم ولا يتمثلانه . ولا يعرفان أن للحياة أثقالا وتكاليف ، وإنما يؤمنان بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم ، وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام . وها هما هذان يضحكان ويعبثان ويلهوان ويلعبان ، كأن خطوب الحياة وأحداثها لم تفرق بينهما ، وكأن حبهما هذا العنيف لم ينته بهما إلى اليأس وما يستتبعه من حزن وألم وبؤس وشقاء . وكأنها لم تتخذ لها زوجين غيره ولم يتخذ له زوجاً غيرها . وكأن كلا منهما لم يزد على أن غاب عن صاحبه يوماً أو أياماً ثم عاد إلى مثل ما كان فيه . فإذا أخذ كل منهما بحظه من الغزل والدعابة ومن الاستمتاع بنعيم الحب الذى لا ينقصه الصد ، ولا يفسده الهجر ، ولا تكدره وشاية الوشاة ودعها وانصرف . ومن المحقق أن كلا منهما لم ينم فى ليلته هذه ؛ فأما هو فقد كان يرى نفسه مقبلا عليها يضمها إليه ضما شديداً عنيفاً ، ويهدى إليها قبلات محرقة ملتهبة ، حتى إذا بلغ به الحب والهيام أقصاه ، صعد بها إلى أجواء بعيدة جداً فى السماء ، وحينئذ وحينئذ فقط يستطيع أن يشفى هذا الظمأ الذى يجده فى نفسه منذ أعوام وأعوام . وأما هى فقد كانت ترى نفسها قائمة منه غير بعيد ، تنظر إليه نظرات فيها الحنان والمكر ، وهى مغرقة فى ضحك هادئ عذب يرتفع له صدرها وينخفض ، ويغشى

وجهها بغشاء رائع بارع من الجمال والفتنة . وهو ينظر إليها مسحوراً مبهوراً وهى تضحك من ذهوله وحيرته . ولكنها لا تلبث أن تقبل عليه ، وقد استحالت إلى حنان خالص ، وإذا هى تميل إليه حـدِبة عليه رفيقة به ، فتضع على جبهته قبلة حلوة حارّةً طويلة ، وإذا هى تجلس إليه فتمر أصابعها فى شعره رفيقة به ، باسمة له ، حتى تبعث الحياة والنشاط فى قلبه وجسمه ، وفى عقله وإرادته وإذا هما قد ارتقيا من السعادة والبهجة واللذة والنعيم إلى أقصى ما يستطيعان أن يرتقيا إليه .

وكانت هذه الأحلام العذاب قد لعبت بهما كل ملعب حين بلغت أذنيهما أصوات الطير المستيقظة وهى تستقبل النهار فرحة مرحة ، وتتلقى ضوء الشمس مبتهجة به ، نشيطة له . وتقع هذه الأصوات العذبة المختلفة من نفسيهما أحسن وقع ، فيثوب إلى قلبيهما شىء من هدوء ، وإلى نفسيهما قليل من دعة ، ولعل كلا منهما قد وجد فى نفسه حاجة قوية إلى أن يغتدى مع الطير ، ويسلم نفسه إلى الطبيعة الحرة المرحة المبتهجة ، فيَتَفَنَّى فيها ويصبح جُزْءاً من أجزائها ساعة أو ساعات . ولعل كلا منهما قد سعى إلى طنف من أطناف غرفته ، فأشرف منه على جنته المطيفة بداره ، فرأى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنها تريد أن تلمسها ، ورأى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً ،

ورأى النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً، ورأى الطبيعة وقد أيقظها برد السحر ومس الندى وغناء الطير فجرت فيها رعدة الحياة ، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمة له مقدمة عليه ، ثم منغمسة فيه ، تريد أن تعبر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى مغيبها . ورأى الأشجار الباسقة الشاهقة فى السماء قد لبست من ضوء الصبح أردية نقية ناصعة ، وامتدت غصونها تضطرب فى الهواء اضطراباً خفيفاً ، كأنها ترجح هذه الطير التى تتغنى فرحة مرحة ، فتترجم بغنائها عن فرح الطبيعة المستيقظة ، ومرح الصبح النشيط . حتى إذا كست الشمس بضوئها النقى سهول العراق وروابيه أسرع عمر بن عبيد الله إلى جارية عائشة هذه التى استعانها على خطبته لعائشة ورد خطبة بشر بن مروان فأعانته ، يريد أن يستعينها مرة أخرى على تعجيل زفافه ، فلما لقيها تحدث إليها فى رغبته هذه ، ووعدها بأن يعطيها ألف دينار إن دخل بعائشة الليلة . ولم تطلب إليه الجارية إلا أن يحمل إلى عائشة مهرها . ثم قالت له : ولن أكون شيئاً إذا لم تدخل عليها منذ الليلة .

وسنترك هذه الجارية لتحدثنا كيف احتالت له على عائشة ، وكيف انفق الزوجان الحبيبان ليلة الزفاف . فإن لهذا لحديثاً عجيباً مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان ، فلن أقصه عليك فى

تلك السذاجة الحلوة الأخاذة التى كانت تقصها الجارية على لداتها وأترابها . فاسمع حديث الجارية فإنك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة والمتاع .

قالت الجارية : تزوج عمر بن عبيد الله من عائشة بنت طلحة وبنى بها بالحيرة ومهدت له يوم عرسه فرش لم ير مثلها ؛ سبع أذرع فى عرض أربع . وحمل إليها ألف ألف درهم مهراً ، وخمسمائة ألف درهم هدية ، وقال لى : لك علىّ ألف دينار إن دخلت بها الليلة . وأمر بالمال فحمل وألقى فى الدار . وغطى بالثياب . وخرجت عائشة فقالت لى : أهذا فرش أم ثياب . قلت : انظرى إليه . فنظرت ، فإذا مال . فابتسمت . فقلت لها : أجزاء من حمل هذا أن يبيت عزباً . قالت : لا والله . ولكن لا يجوز دخوله إلا بعد أن أتزين له وأستعد . قلت : فيم ذا ؟ فوجهك والله أحسن من كل زينة ، وما تمدين يدك إلى طيب أو ثوب أو مال أو فرش إلا وهو عندك . وقد عزمت عليك أن تأذنى له . قالت : افعلى . فذهبتُ إليه فقلتُ له : بت بنا الليلة . فجاءنا عند العشاء الآخرة . فأدنيت إليه طعاماً ، فأكل الطعام كله حتى أعرى الخوان ، وغسل يده . وسأل عن المتوضأ . فأخبرته . فتوضأ ، وقام يصلى ، حتى ضاق صدرى ونمت . وتمضى الجارية فى حديثها ، فتصف ما كان بين الزوجين فى

ليلة الزفاف هذه وصفاً قد تستطيع أن تقرأه فى الأغانى ، ولا نستطيع أن نرويه لك ، ولكنا نذكر أن الجارية قد عبثت بالزوجين حين أصبحا عبثاً ضحك له الزوج ، وضرب بيده على منكب عائشة ، فضحكت وغطت وجهها وقالت :

قد رأيناك فلم تحل لنا وبلوناك فلم نرض الخبر !

٢١

وكانت رملة بنت عبد الله بن خلف تحب زوجها عمر بن عبيد الله بن معمر أشد الحب ، وتؤثره أعظم الإيثار ، لا تعدل برضاه شيئاً ، ولا تدخر فى سبيله جهداً ، ولم تعرف أن زوجها قد رغب عنها أو تنكر لها أو ضاق بها فى أثناء هذه الأعوام الطويلة التى قضتها عنده ، بل لم تعرف منه إلا براً بها وعطفاً عليها وفناء فيها . وقد أفهمها حين خطب عائشة بنت طلحة أنه ما فكر فى هذا الزواج إلا وفاء لصديقه مصعب بن الزبير . هذا الذى تآمر عليه بنو أمية فقتلوه ثم تآمروا على انتهاك حرمته فى زوجه من بعده ، وانتهاكها جهرة باسم الدين والعرف والقانون ، ولم تفهم رملة وما كان لها أن تفهم أن يدخل عليها زوجها فى بيتها

ضرة ينغص بها عليها حياتها باسم الوفاء لصديقه الذى مات . ولم تحاول أن تفهم زوجها أن الحياة فيها الوفاء للأحياء كما فيها الوفاء للموتى ، وأن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ وحرمات ينبغى أن ترعى . بل لم تحاول أن تصده عن هذا الزواج وقد رأت منه إلحاحاً فيه وتصميماً عليه وإنما استقبلت خطبها باسمة ، واحتملته جلدة . وصبرت عليه عزيزة النفس عميقة الحزن ، وصرفت عن الحياة ولذاتها ، ولكن فى شىء مؤثر حقاً من الاحتفاظ بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وادخار الحزن لخلوتها حين لا ترى أحداً ، ولا يراها أحد ، وكان زوجها يجد هذا كله منها فيعجب به ويعجب له ، ويرفق بها أشد الرفق ، ويصفيها مودة خالصة قوية ، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيى قلوب النساء . وكانت تجد شيئاً من الرضا وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها . ولكنها عرفت آخر الأمر أنها لم تعد أحب الناس إليه ولا أكرمهم عليه ولا آثرهم عنده . وأن هناك امرأة أخرى هى آثر منها فى قلبه وأكرم منها على نفسه ، وأحرى أن تكون صاحبة السلطان على عقله . ثم عرفت أنه لم يقدم على هذا الزواج وفاء لصديقه مصعب ، وإنما حباً لزوجه عائشة . ومن يدرى ؟ فلعله لم يكن يؤثر مصعباً بحب ولا بشىء يشبه الحب . وإنما كان يؤثر عائشة

بهذا الحب الذى يغمر به زوجها . وإذن فلم يكن مصعب مقصوداً بهذا الحب وإن استمتع به ، وإذن فقد كان زوجها لا يمنحها نفسه كلها ولا ضميره كله كما كانت تمنحه نفسها كلها وضميرها كله . كان يصرف عنها بين حين وحين إلى عائشة بنت طلحة هذه التى رسم لها فى نفسه صورة جميلة خلابة ، وبنى لها فى قلبه معبداً شامخاً شاهقاً من معابد الحب والوفاء . وإذن فقد كان زوجها خائناً مخادعاً يتكلف الود ويتصنع الوفاء . ولم لا يكون زوجها خائناً مخادعاً وهو يخون مصعباً ويخادعه حين يجاهد فى صفوف الأمويين بعد أن قتلوه ، ثم يدعى أنه قد وفى له . لا لشىء إلا لأنه آثر نفسه بزوجه عائشة بنت طلحة . بل هو يخون الأمويين ويخادعهم حين يدعى أنه ما زال وفياً لمصعب ، كارهاً لبنى أمية ، ولم إذن يعمل معهم ويجاهد فى صفوفهم ؟ وهكذا خاب أمل هذه المرأة البائسة فى زوجها وفقدت ثقتها به . واستحيت من نفسها أن يكون سلطانها عليه قد ضعف إلى هذا الحد ، واستحيت من نفسها أن تلقى صديقاتها بعد أن انتزعت مكانها من زوجها هذه المرأة الطارئة . وكان الشيطان يذكى فى نفسها غرائز الحب والبغض جميعاً ، فإذا هى لم تكلف بزوجها قط كما تكلف به الآن ، ولم ترغب فى التلطف له والرفق به كما ترغب فيهما الآن ، ولم تحتج قط إلى حنانه وعطفه

كما تحتاج إليهما الآن ، ومع ذلك فهى لم تبغض زوجها قط كما تبغضه الآن . ولم تضق به قط كما تضيق به الآن . ولم تزهد فيه قط كما تزهد فيه الآن . وهكذا كانت حياتها جحيما لا يطاق .

وكان أشد ما يؤثر فى نفسها هذه الأخبار التى كانت تسمعها عن زوجها ، وكلها تصور السعادة والنعيم اللذين يستمتع بهما مع زوجه عائشة بنت طلحة . وأنت تستطيع أن تقرأ هذه الأخبار فى الأغانى وفى العقد الفريد . كانت رملة تسمع هذه الأخبار فتقع من نفسها موقعاً أليماً ، وإذا هى تتمثل عائشة أمامها تمثلا متصلا ملحاً ، وترى زوجها ملازماً لعائشة كأنه الظل ، فلا تكاد تراه حتى تضطرب نفسها اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور فى قلبها شعور قوى مختلط غريب شديد التعقيد . شعور فيه الحسرة والحزن ، وفيه الألم واليأس ، وفيه شىء من حب الاستطلاع لعائشة هذه التى سلبت منها زوجها ، فحرمتها لذة العيش ونعيم الحياة . هذه التى استأثرت بقلب زوجها وعقله ، والتى ارتسم شخصها فى نفسه ارتساماً قوياً ليس إلى محوه من سبيل.

من عائشة بنت طلحة ؟ أو من عسى أن تكون ؟ وكيف يمكن أن تكون ؟ أى شىء فيها أغرى زوجها فهام بها هذا الهيام الذى انتهى بهما إلى هذا الزواج الذى انحطم له قلبها ، واندكت له آمالها كلها ؟

خواطر كانت تملأ قلبها إذا أصبحت . وكانت تملؤه إذا أمست . وكانت تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التى خطفت منها زوجها ذات مساء . وما تزال هذه الخواطر تلح عليها وتستأثر بها حتى تستحيل إلى شيء من الرغبة القوية الملحة فى أن ترى عائشة بنت طلحة ، وأن تراها عارية متجردة كما ولدتها أمها .

وتدعو رملة جارية عائشة وتقول لها : أرينى عائشة متجردة ولك ألفا درهم . وتذهب الجارية فتقول لعائشة : إن رملة جعلت لى ألفى درهم إن رأتك متجردة . وتحس عائشة فى نفسها شيئاً من الغرور والكبرياء وتتنبأ بما سيثيره هذا فى نفس رملة من كمد وغيظ . وتقول للجارية : فإنى أتجرد ، فأعلميها ولا تعرفيها أنى أعلم ، وتجردت عائشة وجعلت تغتسل مقبلة ومدبرة . ورملة تنظر إليها . وتحققت نبوءة عائشة فقد كاد قلب رملة يتميز من الكمد والغيظ وقالت للجارية وهى تعطيها ألفى الدرهم : وددت لو أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها .

٢٢

وكانت عائشة بنت طلحة تنفق كل ليلة شطراً من الليل مع زوجها عمر بن عبيد الله ، تخوض معه فى ألوان من الحديث وتجاذبه أطرافاً من اللهو . وكانت تحدثه دائماً عن الغزلين سواء منهم من يتخذ الغزل صناعة ، يصف به لذته وأهواءه ، وافتنانه فيما يتذوق من نعيم الحياة ، ومن لا يقصد إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصد إلى وصف العواطف الحارة الصادقة التى تعذبه وتعنيه ، دون أن تتيح له لذةً مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التى يجدها ، والتى هو بها كلف ، وعليها حريص ، هى لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لاسبيل إلى وصله أو التقرب إليه . وكانت تحدثه عن زعيم أولئك وهؤلاء ؛ كانت تحدثه عن عمر بن أبى ربيعة ، ذلك الذى أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير . وكانت تحدثه عن جميل بن معمر ذلك الذى أمضى حياته فى البادية ، وقصر شعره على حب بثينة ، لا يطمع من هذا كله فى شيء إلا الشعور بأنه يحب ، وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا

الحب يضنيه ويعنيه، وبأنه يجد فى هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة ، بل يطمع فى شيء آخر وهو أن تحس صاحبته ما يدخر لها من حب ، وما يلقى فى سبيلها من ألم . وكان عمر بن عبيد الله يسمع لها بأذن معرضة؛ فقد كان يبغض هؤلاء الغزلين عامة ، ويبغض العابثين منهم خاصة ، ويبغض ابن أبى ربيعة منهم بنوع أخص . بل كان يتحرج من رواية شعره . ويشفق من أثره فى الفتيات والفتيان ، وكانت عائشة بنت طلحة ترى أن ليس لهذا التحرج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوى خلاب ساحر للنفوس . وكثيراً ما كانا يختلفان حول هذا الشعر ؛ فأما هو فكان يرى فى هذا الشعر إفساداً لعقول الشباب ، وتدنيساً لقلوبهم الطاهرة . وأما هى فكانت ترى هذا الشعر مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية ، ومظهراً من مظاهر الحياة الأدبية ، وصورة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام. وكانت ترى هذا الشعر آخر الأمر مرآة لنفس صاحبه ، ومظهراً لشخصيته ، ومثالا لقوة حسه ،ودقة شعوره . وكانت إذا اختلفت مع زوجها واشتد الخلاف حول ابن أبى ربيعة وشعره قالت له هذه الجملة فى صوت قاطع ولهجة حازمة : إن المرأة الحجازية لا تستطيع أن تعيش بدون ابن أبى ربيعة ، كما أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها .

وكانت عائشة بنت طلحة تجد لذة قوية حين تقبل على زوجها فتحدثه فى هذا كله ، وتختلف معه حول هذا كله . وكانت تجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين كانت تنصرف عنه وقد تركته مغيظاً محنقاً ، لأنها عرضت لضرتها رملة بنت عبد الله بن خلف فى أثناء الحديث ، فذكرتها بما يسوؤها ويسوؤه . فإنها لجالسة إليه ذات ليلة تحدثه عن هؤلاء النساء اللائى يخرجن إلى مكة إذا أقبل موسم الحج ، إذ ذكرت له رملة وذكرت له أن ابن أبى ربيعة قد رآها فأحبها وكلف بها وأثنى عليها . ويبتسم عمر بن عبيد الله ويسألها : ماذا قال فيها ؟ فتقول له : قال فيها هذه القصيدة الرائعة :

أصبح القلب فى الحبال رهينا ... مقصداً يوم فارق الظاعنينا
قلت من أنتم؟ فصدت وقالت ... أمُبِدٌّ سؤالك العالمينا (١)
نحن من ساكنى العراق وكنا ... قبله قاطنين مكة حينا
قد صدقناك إذ سألت ، فمن أنـ ... ـت؟ عسى أن يجر شأن شئونا
وجلا بردها وقد حسرتـه ... نور بدر يضىء للناظرينا

قال لها ، وابتسامته ما زالت على شفتيه : فهذا عُمركنّ قد أثنى على رملة ، فماذا تقولين بعد هذا الثناء ؟ قالت له : إذن

(١) معناه : أأنت ملزم سؤالك الناس . من قولهم : مالك منه بد .

فأنت لا تعلم ماذا قالت الثريا وماذا صنعت عند ما سمعت هذه القصيدة ؟ قال لها : لا أعلم شيئاً ، ومنْ لى بعلم ما يجرى بين النساء من الأحاديث ؟ وأنا منصرف عن هذه الحياة الهازلة العابثة إلى ما تعلمين من جد صارم مرّ . قالت له : لقد كانت أم نوفل غضبى على ابن أبى ربيعة ، فلما قال فى رملة هذه القصيدة ، ذهبت فأخبرت الثريا ، والثريا — كما تعرف — تغار على ابن أبى ربيعة غيرة شديدة . قال لها : والله لا أعرف شيئاً ، ولكنْ أتمنّى حديثك ، قالت: فلما سمعت الثريا ، قوله :

أصبح القلب فى الحبال رهينا   مقصداً يوم فارق الظاعنينا

قالت : إنه لوقاح صنع بلسانه ، ولئن سلمت له لأردّنّ من شأوه ولأثنينّ من عنانه ، ولأعرّفنه نفسه . فلما سمعت قوله :

قلت من أنتم؟ فصدت وقالت   أمبدٌّ سؤالك العالمينا

قالت : إنه لسآلٌ ملحّ . قبحاً له ، ولقد أجابته إن وفت . فلما سمعت قوله :

نحن من ساكنى العراق وكنا   قبله قاطنين مكة حينا

قالت : غمزته الجهمة . فلما سمعت قوله :

قد صدقناك إذ سألت ، فمن أنـ   ـتَ؟ عسى أن يجر شأن شئونا

قالت : رمته الورهاء (١) بآخر ما عندها فى مقام واحد . فلما سمعت قوله :

وجلا بردها وقد حسرته نور بدر يضىء للناظرينا

قالت : أفٍّ له ما أكذبه ، أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟

ثم هجرته ، فقال فيها قصيدته :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب
سلبتى مجاجة المسك عقلى فسلوها ماذا أحل اغتصابى
وهى مكنونة تحيَّر منها فى أديم الخدين ماء الشباب
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها ؟ قلت : بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

فسمع ابن أبى عتيق هذه القصيدة فقال : إياى أراد ، وبى نوَّه . لا جرم والله لا أذوق أكلا حتى أشخص فأصلح بينهما ، ونهض ، ونهض معه بلال مولاه فاكترى راحلتين ، ركب إحداهما وركب مولاه الأخرى ، فسار سيراً شديداً ، فقال له

---

(١) الورهاء : الحمقاء . تريد أنها رمت بنفسها بين يديه وأسلمت نفسها له .

مولاه : أبق على نفسك فإن ما تريد ليس يفوتك ، فقال : ويحك أبادر حبل الود أن يتقضبا ، وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا . وذهب فأصلح بينهما .

وليس من شك فى أن هذا الحديث قد غاظ عمر بن عبيدالله ووقع من نفسه موقعاً أليماً ، فسخرية عائشة من رملة سخرية منه ، ولكنه كظم غيظه ، وأخفى ألمه ، وأراد أن يصرفها برفق عن هذا الحديث ، فجعل يحدثها عن شجاعته وإقدامه ، وكيف اختاره عبد الملك بن مروان رئيساً للحملة التى بعثها لقتال الخوارج ، وكيف انتصر عليهم وقتل زعيمهم أبا فُدَيْك ، ولم يتركهم إلا وقد فعل بهم الأفاعيل . وقد ظن أنه بهذا الحديث قد صرفها عن حديثها الساخر عن رملة ، وكان ظاهر أمرها يدل على أنها قد انصرفت عن هذا الحديث ، ولكنها لم تنصرف عنه فى حقيقة الأمر ، فها هى ذى تقول له : أنا أعلم أنك أشجع الناس ، وأعرف لك يوماً هو أعظم من هذا اليوم الذى ذكرته ، فلا يخطر بباله إلا أنها ستحدثه عن يوم عظيم من أيام انتصاراته ، ويسألها وقد امتلأت نفسه غروراً وزهواً : وما هو ذلك اليوم ؟ ولكنها تخيب أمله وتقول له فى سخرية لاذعة : يوم اجتليت [1] رملة ، وأقدمت على وجهها الجهم وأنفها العظيم. هنالك غضب

---

(١) اجتلى عروسه : نظر إليها مجلوة ليلة زفافها .

عمر بن عبيد الله فأغلظ اللفظ ، وحدد اللحظ ، وقسى عليها قسوة ليس لها بها عهد . ولم تزد عائشة على أن لزمت الصمت ، وقطعت الحديث . وأرسلت دموعها هادئة تنحدر على وجهها الجميل . ثم أسرعت إلى هذه الدموع فكفكفتها ، ثم انصرفت عن زوجها منكرة لهذه القسوة التي رأتها منه ، ومفكرة فيما عسى أن تلقاه به بعد هذه القسوة . وقد آوت عائشة إلى غرفتها وخلت فيها إلى نفسها ، وجعلت تفكر فى زوجها هذا الذى أحبته وآثرته ، فلم تلق منه آخر الأمر إلا شدة فى القول ، وعنفاً فى الحديث ، وما كان أكثر هذه الخواطر التى كانت تضطرب فى نفسها ، وما كان أغرب هذا الشعور الذى كانت تجده فى أثناء ذلك ؛ فقد كانت تذكر زوجها مصعباً ، وما كان يؤثرها به من الخير ، وما كان يختصها به من الحب والعطف . ثم تذكر عمر بن عبيد الله هذا الذى يقسو عليها فيلح فى القسوة ، ويعنف بها فيسرف فى العنف ، وعلام يقسو عليها ؟ وعلام يعنف بها ؟ لأنها تهكمت عليه وسخرت منه لإبقائه على رملة ذات الوجه الجهم والأنف العظيم . وماذا فى هذا التهكم ؟ وماذا فى هذه السخرية ؟ لقد كانت تغاضب مصعباً وتصارمه وتعاسره ، فما قسا عليها هذه القسوة وما عنف بها هذا العنف . وإنما كان رفيقاً بها دائماً ، عطوفاً عليها دائماً ، يبرها ويكرمها ما استطاع إلى برها وإكرامها

سبيلا . وعلام يبقى زوجها على رملة ، وهى أجمل من رملة وجهاً ، وأحسن منها منظراً ، وأحلى منها حديثاً ، وأقدر منها على اختلاب القلوب واستلاب الألباب؟ ألم يسمع زوجها قول الشاعر فيهما :

انعم بعائش عيشاً غير ذى رنق ‏ ‏ ‏ وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق

كانت عائشة تفكر فى هذا كله، ولكنها كانت تحس أنها لم تحب زوجاً من أزواجها كما تحب زوجها عمر بن عبيد الله . بل كانت تحس أنها لم تعرف الزواج إلا منذ أن تزوجها عمر ابن عبيد الله . وإنها لتنكر قسوته ، ولكنها تحب هذه القسوة ، وإنها لتنكر عنفه ، ولكنها تحب هذا العنف . وإنها لتضيق بجفوته وتألم من غلظته ، ولكنها تجد سعادتها فى هذا الضيق ، ولذتها فى هذا الألم . هى التى تعشقه وليس هو الذى يعشقها . هى معه عاشقة وكانت مع مصعب معشوقة . فكانت خليقة أن تجد ما يجده العشاق من الحزن والألم ومن الحاجة دائماً إلى الشكوى ومن الطموح دائماً إلى الغاية التى لا يقرب منها العاشق إلا لتبعد عنه ، فهو لا يبلغها ولا ينتهى إليها . وإن ابن أبى ربيعة لجاهل حقاً حين لا يعلم أنها عاشقة لزوجها . ولو أنه علم بليلتها هذه ما قال :

ووال كفاها كل شيء يهمها فليست لشيء آخر الدهر تسهر

بهذا كله وبأكثر من هذا كله كانت نفس عائشة تضطرب حين انصرفت عن زوجها وأوت إلى غرفتها من تلك الليلة : ولكن ما هذا الصوت الذى يناديها من بعيد ؟ وكأنه يدنو منها أو كأنها تدنو منه شيئاً فشيئاً ، وإذا هو قد قرب منها أو قربت منه فإذا هو بين يديها . وإذا هى تسمع طرقاً خفيفاً على الباب ، وإذا هى تقول : من بالباب ؟ وإذا الباب يفتح قبل أن تأذن بالدخول ، وإذا شخص يدخل هادئاً رزيناً وقد أغلق الباب من دونه ، وسعى إليها مطمئناً ، وهو يقول لها فى صوت زوجها الخافت الذى كأنما يتحدث فيه إلى نفسه : لم أخطئ التقدير إذن . ثم يدنو منها فينحنى عليها فيقبلها ثم ينهضها فيضمها إليه ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب . ثم يقول لها : لا بأس عليك يا عائشتى العزيزة . لقد كنت أقدر أنى سأراك فى هذه الحال . وقد كنتُ أشفق أن تمضى فى حزنك هذا حتى يصرفك عن النوم . وليس من شك فى أن مقدم زوجها عليها قد أشاع فى قلبها الرضا والغبطة ، وفى أن ألفاظه قد وقعت من نفسها أحسن الوقع . وإذا هى تعود إليه مشرقة الوجه باسمة الثغر ، كأنها لم تقل له شيئاً ولم تسمع منه شيئاً ، وكأن دموعها الغزار لم تغسل وجهها الجميل ، وكأن نفسها لم تضطرب بما كانت تضطرب به من الخواطر ، وإذا الزوجان

يلتقيان فيتعانقان فيغيبان فى قبلة طويلة حارة عرفا أولها ولم يعرفا آخرها .

٢٣

ويقبل موسم الحج فتحرص عائشة على أن تخرج إلى مكة لتلقى الغزلين فتثير فى نفوسهم الخواطر ، وتبعث فى قلوبهم العواطف ، وتحث عقولهم على الروية والتفكير ، وإذا هم لا يستريحون ولا يطمئنون حتى يصوغوا هذه الخواطر وهذه العواطف وهذه المعانى غزلا بديعاً رفيعاً ، لا يلبث أن يسقط فى أيدى المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب ، وإذا هى موضوع للحديث والسمر .

وكيف يقبل موسم الحج ولا تحرص عائشة على أن تخرج إلى مكة وهى كسائر نساء عصرها مريضة بهذه العلة التى يسمونها الغزل . فهى لا تتزين لنفسها وإنما تتزين للغزلين ، وهى لا تتجمل لنفسها وإنما تتجمل للغزلين . وهى بعبارة واضحة لا تعيش لنفسها وإنما تعيش للغزلين . ولسنا نعرف من نساء القرن الأول للهجرة امرأة أضنتها علة الغزل ، واستأثرت بقلبها ولبها ونفسها كعائشة بنت طلحة . كانت لا ترى من نفسها جمالا ،

ولا تحس من نفسها فتنة ، ولا تشعر من نفسها بإغراء إلا فكرت فى الغزلين وفكرت فيما عسى أن يثير هذا الجمال وهذه الفتنة وهذا الإغراء فى نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من الخواطر والعواطف والمعانى . ثم فكرت فيما عسى أن تظهر فيه هذه الخواطر وهذه العواطف وهذه المعانى من الصور الغزلية الرائعة . وكثيراً ما كانت تقول لصديقاتها : ما أخلق هذا الجمال أن يثير العواطف فى قلب ابن أبى ربيعة . فيخلع علىّ من الصور الرائعة البارعة ما شاء له الخيال والفن . وما شاءت له طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية ! وكانت تقضى نهارها بين المغنين يتغنون لها هذا الغزل ، فإذا أقبل الليل جلست إلى صديقاتها ولا حديث لهن إلا هذا الغزل . فإذا تقدم الليل وأوت إلى مضجعها لتستريح ،لم يكن نومها بأهدأ من يقظتها ، فقد كانت تنشد هذا الغزل نائمة كما كانت تنشده يقظة ، وما كانت أحلامها فى الليل إلا إقبالا على مكة وتصدياً للغزلين ومعابثة لهم. كما كانت تفعل حين تجتمع لها قواها العاملة كلها . وكثيراً ما كانت تحدث صديقاتها بأطراف غريبة قيمة من هذه المعابثات التى كانت تمليها عليها أحلامها فيَجِدْن فيها لذة ومتاعاً . فليس غريباً أن يقبل موسم الحج فتحرص عائشة على أن تخرج إلى مكة . ولا سيما إذا علمت أن الحارث بن خالد ذلك الشاعر الذى أحبها وكلف بها وأطال الغزل فيها ،

والذى كان كغيره من شباب قريش مبعداً عن الحياة السياسية العاملة مَحُولا بينه وبين ما يطمع فيه من رفعة وسلطان، قد واتاه الحظ وابتسمت له الأيام ، فأصبح أميراً على مكة من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

وقد تهيأت عائشة للحج كما تتهيأ له دائماً ، وكما لم تتهيأ له امرأة قط ، فلم يعرف التاريخ امرأة تهيأت للحج فكانت كعائشة بنت طلحة ، أو قاربت عائشة بنت طلحة . وهذه عاتكة بنت يزيد بن معاوية تستأذن من زوجها أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فى الحج ، فيأذن لها ، ولكنه يقول لها : ارفعى حوائجك واستظهرى ، فإن عائشة بنت طلحة تحج . وتهيأت عاتكة وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة! عائشة! فضغطهم ، فسألت عنه فقالوا : هذه ما شطتها ، ثم جاءت مواكب على هذا السنن ، وكلما مر بعاتكة موكب أحست فى حلقها بغصة ، وفى قلبها بحسرة . وأقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج ، فما إن رأتها عاتكة وأحست بالفشل الذريع فى منافسة عائشة حتى قالت : ما عند الله خير وأبقى ! .

وأقبلت عائشة على مكة فكانت حديث الناس جميعاً منذ أن أقبلت إلى أن انصرفت . يتحدثون عن جمالها وفتنتها ، ويتحدثون عن ترفها ودعتها ، ويتحدثون عن مواكبها الرائعة التى تبهر العيون ، وعن جواريها الفاتنات اللائى يخلبن القلوب ويستهوين الألباب ، يقول الرجل منهم لصاحبه : أرأيت إلى عائشة بنت طلحة وإلى جمالها الرائع الذى أصبح فتنة لا تتقى وسحراً لا يقاوم ! لقد نيفت على الأربعين ، وهذا هو زوجها الثالث ، ومع ذلك فهى ما زالت تحتفظ بشبابها كما هو ناصعاً كضوء الشمس ، رقيقاً كضوء القمر ، حلواً كابتسامة العذراء . فيقول الآخر : لم أعجب لشىء كما عجبت لمواكبها البارعة التى زينت أحسن زينة وأروعها ، وأعظمها تأنقاً ورشاقة . ولم أفتن بشىء كما فتنت بجواريها وهن يسعين فى الطريق مسرعات يستبقن ، كأن وجوههن فلق الصبح ، وكأنهن لخفتهن ورشاقتهن لا يسعين على الأرض وإنما يسعين فى الهواء . فيسألهما رجل ثالث : وما اختلافها إلى مكة ؟ وما حجها كل عام ؟ وما اعتمارها كل حين فيضحكان ويقولان : مكة بلد وادع ، تحب أن تزوره ، ولو لم يكن فى مكة إلا ابن أبى ربيعة هذا الذى ينفق عمره فى التغنى بجمال المرأة وتأثيرها فى حياة الرجل ، ومكانها من نفسه ، ويتخذ كل شىء فى حياته وسيلة إلى الاتصال بها ، وذكرها ، والتحدث

إليها ــ لكان هذا كافياً لأن تختلف إليها وتحج كل عام وتعتمر كل حين .

ولكن لم تكد عائشة تفرغ من حجها وتعود إلى المدينة ، حتى كانت أندية قريش متجمعة فى المسجد الحرام ، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف . أذاعه الغريض فى مكة عن عائشة ، فشغل به الناس وتناقلوه ، وكان الغريض يقص قصصه فيقول : أرسلنى الحارث بن خالد إلى عائشة بنت طلحة بعد أن قضت حجها ، وقال لى : قل لها : يقول لك الحارث : أنعم الله بك عيناً وحياك . فقد أردت زيارتك ، فكرهت ذلك إلا عن أمرك . فإن أذنت فيها فعلت ، فقالت لمولاة لها جزلة : وما أرد على هذا السفيه ؟ فقالت لها : أنا أكفيك ، فخرجت إلىّ وقالت : اقرأ عليه السلام وقل له : وأنت أنعم الله بك عينا وحياك . نقضى نسكنا ثم يأتيك رسولنا إن شاء الله . ثم قالت لها : قومى فطوفى واسعى واقضى عمرتك واخرجى فى الليل . ففعلت . وأصبح الحارث فسأل عنها ، فأخبر خبرها ، فأرسل إلىّ ، وبعث بى إليها ، فلحقتها بعسفان أو قريب منه ، ومعى كتاب الحارث إليها وفيه :

ما ضركم لو قلتم ــ سدَداً ــ إن المطايا عاجل غدها
ولها علينا نعمة سلفت لسنا على الأيام نجحدها

لو تممت أسباب نعمتها   تمت بذلك عندنا يدها

فلما قرأت الكتاب قالت : ما يدع الحارث باطله ؟ . ثم قالت لى : هلْ أحدثت شيئاً ؟ قلتُ : نعم . فاسمعى . ثم اندفعتُ أغنى فى هذا الشعر فقالت : والله ما قلنا إلا سداداً . ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه . وأتيت على الشعر كله ، فاستحسنته وأمرت لى بخمسة آلاف درهم وأثواب وقالت : زدنى . فغنيتها فى قول الحارث أيضاً :

زعموا بأن البين بعد غد   فالقلب مما أحدثوا يجف
والعين منذ أجدّ بينهمُ   مثل الجمان دموعها تكف
ومقالها ودموعها سجم   أقلل حنينك حين ننصرف
تشكو وأشكو ما أشت بنا   كل بوشك البين معترف

فقالت لى : يا غريض ، بحقى عليك أهو أمرك أن تغنينى فى هذا الشعر ؟ قلت : لا وحياتك يا سيدتى . فأمرت لى بخمسة آلاف درهم . ثم قالت لى : غنى فى شعر غيره . فغنيتها قول ابن أبى ربيعة فيها :

أجمعت خلتى مع الفجر بينا   جلل الله ذلك الوجه زينا
أجمعت بينها ولم نك منها   لذة العيش والشباب قضينا
فتَوَلت حمولها واستقلت   لم ننل طائلا ولم نُقْضَ دينا

ولقد قلتُ يوم مكة لمـــا أرسلتْ تقرأ السلام علينا
أنعم الله بالرسول الذى أر سل ، والمرْسل الرسالة عينا

فضحكتْ ، ثم قالت : وأنت يا غريض ، فأنعم الله بك عينا وبابن أبى ربيعة عينا ، لقد تلطفت حتى أديتَ إلينا رسالته ، وإن وفاءك له لمما يزيدنا رغبة فيك وثقة بك . وكان عمر بن أبى ربيعة قد سألنى أن أغنيها هذا الصوت . لأنه كان قد ترك ذكرها لما غضبت بنو تيم من ذلك . فقد كان قد قال فيها أشعاراً كثيرة ، فبلغ ذلك فتيان تيم — أبلغهم إياه فتى منهم — وقال لهم : يا بنى تيم بن مرة . ها لله ليقذفن بنو مخزوم بناتنا بالعظائم وتغفلون . فمشى ولد أبى بكر وولد طلحة بن عبيد الله إليه ، فأعلموه بذلك ، وأخبروه بما بلغهم . فقال لهم : والله لا أذكرُها فى شعر أبداً . ولم يحب التصريح بها بعد ذلك ، ولكنه كره إغفال ذكرها ، وقال فيها هذه الأبيات . وقال لى : إن أبلغتها هذه الأبيات فى غناء فلك خمسة آلاف درهم ، فوفى لى بذلك . وأمرت لى عائشة بخمسة آلاف درهم أخرى .

ثم انصرفتُ من عندها فلقيتُ عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان ، وكانت قد انتهت من أداء حجها فقال لها جواريها : هذا الغريض ، فقالت لهن : علىّ به . فجئن

بى إليها . فلما دخلتُ سلمتُ فردّتْ علىّ . وسألتنى عن الخبر ، فقصصته عليها . فقالت : غننى بما غنيتها به . ففعلت فلم أرها تهش لذلك . فغنيتها معرضاً لها ، ومذكراً بنفسى فى شعر مرة بن محكان السعدى يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف .

أقول والضيف مخشى ذمامته على الكريم وحق الضيف قد وجبا
يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا
فى ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا

فقالت وهى مبتسمة : قد وجب حقك يا غريض . فغننى ، فغنيتها :

يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا ، ووقرت فى العظم
وسلبتنا ما لست مخلفه يا دهر ما أنصفتَ فى الحكم
لو كان لى قرن أناضله ما طاش عند حفيظة سهمى
لو كان يعطى النصف قلت له أحرزتَ سهمك فالْهُ عن سهمى

فقالت : نعطيك النصف ولا نضيع سهمك عندنا . ونجزل لك قسمك . وأمرت لى بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية . وغير ذلك من الألطاف .

وأتيتُ الحارث بن خالد فأخبرته الخبر ، وقصصت عليه القصة ، فأمر لى بمثل ما أمرتا لى به جميعاً . فأتيت ابن أبى ربيعة وأعلمته بما جرى ، فأمر لى بمثل ذلك . فما انصرف واحد من ذلك الموسم بمثل ما انصرفت به ، بنظرة من عائشة ، ونظرة من عاتكة وهما من أجمل نساء عالمهما ، وبما أمرتا لى به ، وبالمنزلة عند الحارث وهو أمير مكة ، وابن أبى ربيعة . وما أجازانى به جميعاً من المال .

وكان الغريض ينتقل بحديثه هذا من ندى إلى ندى ، فلا يكاد يتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قوم آخرون ، ليسمعوا منه ويسألوه . وكان يستجيب لمن يدعوه ، ولا يزهد فى أن يعيد قصته مرة ومرة . وفيما هم فى ذلك إذا رجل فخم ضخم يقبل على المسجد ، فلا يكاد يسمع إلى الغريض وهو يقص على القوم حديثه ، حتى يقول لهم : وعندى أنا وحدى تتمة هذ الحديث . والناس يدعون هذا الرجل ليسمعوا منه ، وهو يقول لهم : ولم تكد عائشة بنت طلحة تستقر فى المدينة حتى دخلت عليها ، وكنت قد قدمت من مكة . فقالت لى : من أين أقبل الرجل ؟ قلت : من مكة ؟ قالت : فماذا فعل الأعرابى ؟ فلم أفهم ما أرادت ، فلما عدت إلى مكة دخلت على الحارث ، فقال لى : من أين ؟ قلت : من المدينة . قال : فهل دخلت على عائشة

بنت طلحة . قلت : نعم . قال : فعمَّاذا سألتك ؟ قلت : قالت لى : ما فعل الأعرابى ؟ قال الحارث : عد إليها ، ولك هذه الراحلة والحلة ونفقتك لطريقك . وادفع إليها هذه الرقعة . وكتب إليها :

من كان يسأل عنا أين منزلنا
فالأقحوانة منا منزلٌ قمنُ ؟
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره
طعن الوشاة ، ولا ينبو بنا الزمن
ليت الهوى لم يقربنى إليك ، ولم
أعرفك إذ كان حظى منكم الحزن

كان أهل مكة يفيضون فى هذه الأحاديث ، ولكن لم تمض على ذلك أشهر معدودة حتى قدمت عائشة على مكة تريد العمرة ، ولم تنصرف عن مكة إلا بعد أن تركتهم يخوضون فى حديث آخر أغرب من كُل هذه الأحاديث وأكثر طرافة وروعة . كان ذلك فى ساعة من ساعات الغروب حين كان وجه النهار شاحباً ممتقعاً ، وحين كانت الشمس تنحدر إلى مغربها حزينة متهالكة يتبعها ضوؤها حزيناً متهالكاً . وحين ابتدأ الليل يقبل شيئاً فشيئاً فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام . وحين أخذت

الظلمة تنتشر على الصحراء كأنها السيل المندفع لا يذر شيئاً أتى عليه إلا غَـمَـرَهُ واكتسحه اكتساحاً . وكان صوت المؤذن يندفع بالأذان عريضاً يملأ الفضاء من حوله ، نقياً يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان الناس قد أخذوا يفدون على المسجد الحرام لتأدية الصلاة ، وكانت عائشة بنت طلحة قد انتهزت فرصة الليل فأقبلت تطوف ، وها هى ذى قائمة تسعى حول البيت ، ولكن المؤذنين قد نهضوا يقيمون الصلاة . والناس فى الاستعداد لأداء الفريضة ، وإذا فتاة جارية وسيمة قسيمة مستقيمة القد معتدلة القوام تقبل فى خفة ورشاقة ، فتعلن إلى الحارث بن خالد أمير مكة — وقد وقف يؤم الناس — أن سيدتها عائشة بنت طلحة تطوف ، وأنه قد بقى شىء من طوافها لم تتمه ، ويجلس الحارث ويأمر المؤذنين أن يكفوا عن إقامة الصلاة ، ويكف المؤذنون عن الإقامة ، ويرتفع صياح الناس منكرين على الحارث تأخير الصلاة لعائشة بنت طلحة . والحارث لا يسمع لهم ولا يحفل بهم ، بل لا يفكر فيهم . إنما نفسه وقلبه وعقله لعائشة بنت طلحة . وربما اختلست عينه إليها نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنَّـهم والشوق ، وعائشة بنت طلحة قائمة باسمة تطوف بالبيت ، لا تقول شيئاً ، ولا يظهر على وجهها الروع أو ما يصور الروع من قريب أو بعيد ، وإنما تسعى رفيقة رشيقة

ثقيلة النهوض بعض الشيء ، محتفظة بابتسامتها الحلوة وإشراقها الجميل .

ويبلغ عبد الملك بن مروان ما صنعه الحارث ، فيعزله عن إمارة مكة ، ويكتب إليه : ويلك ! أتركت الصلاة لعائشة بنت طلحة ؟ ! فيقول الحارث : ما أهون والله غضبه إذا رضيت ! والله لو لم تقض طوافها إلى الفجر لما كبرت . ويقول فيها :

لم أرحب بأن سخطت ، ولكن ... مرحباً أن رضيت عنا وسهلا
جعل الله كل أنثى فداء ... لك ، بل خدها لرجلك نعلا
وجهك البدر ، لو سألت به المز ... ن ، من الحسن والجمال استهلا
إن عند الطواف حين أتته ... لجمالاً فعماً وخلقاً رِفَلاَّ (١)

٢٤

وكانت أياماً حلوة لذيذة هذه الأيام التى أنفقتها عائشة مع زوجها عمر بن عبيد الله ، يسعدان بالحب ، وينعمان بالحياة الرائعة فى غير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط . وكانت ساعات

---

(١) الفعم : الممتلىء الواسع . الرفل : الواسع .

جميلة خلابة هذه الساعات التى كانت تخلو فيها إليه فتذوق معه من النعيم ما شاء حبها له ، وما شاءت قدرته على فتنتها وإمتاعها بنعماء الحب وبأسائه جميعاً . ولكن يوماً أقبل يحمل إليها شراً ليس فوقه شر ، وألماً ليس بعده ألم ، أصبح هذا اليوم مظلماً ، فما أمسى حتى أظلمت له حياتها كلها ؛ ذلك أنه مضى بموت زوجها عمر بن عبيد الله . ولم يكن عمر بن عبيد الله زوجها فحسب ، وإنما كان زوجها حين تحتاج إلى عطف الزوج ، وكان حبيبها حين تحتاج إلى مرح الحبيب ، وكان ابنها حين تحتاج إلى بر الابن ، وكان أخاها حين تحتاج إلى مودة الأخ ، وكان أباها حين تحتاج إلى حنان الأب ، كان كل هذا ، بل كان أكثر من هذا ، فقد تزوجت قبله مصعبا ، وكانت تحبه ويحبها ، ولكنها لم تشعر فى جوار مصعب بما تشعر به فى جوار عمر بن عبيد الله ، فقد كانت تحب مصعباً ويحبها حقاً ، ولكنه لم يستأثر بقلبها وعقلها كما استأثر بهما عمر بن عبيد الله . وقد كانت تعيش فى ظل مصعب معشوقة ، كلمتها هى العليا ، وأمرها هو المطاع الذى لا معقب له . ولكنها عاشت فى ظل عمر بن عبيد الله عاشقة لا تراه إلا قوة متسلطة عليها ، يصرفها كما يريد ، ويدبر أمرها كما يهوى دون أن تستطيع امتناعاً عليه أو إباء . وكذلك أنفقت عائشة أيامها مع عمر بن عبيد الله

خاضعة لسلطانه كما ينفق الطفل أيامه مع أمه الحنون خاضعاً لسلطانها . كان يأمرها فتأتمر وينهاها فتنتهى ، واجدة فى ذلك اللذة كل اللذة ، والنعيم كل النعيم . فلما مات مات معه أملها كله ، وإذا هى تنوح عليه قائمة كما لم تنح على أحد من أزواجها قبله ، وإذا الناس يأخذهم الدهش لأن نواح المرأة على زوجها قائمة معناه فى عرفهم أنها لا تريد أن تتزوج بعده . وهم يسألونها عن هذا النواح القائم ما أصله وما مصدره ؟ ويقولون لها : يا عائشة ما صنعت هذا بأحد من أزواجك . وهى تقول لهم : لقد كان فيه خلال ثلاث لم تكن فى أحد منهم : كان سيد بنى تيم ، وكان أقرب القوم بى قرابة ، وأردتُ ألا أتزوج بعده . والناس يسمعون لها هذا الكلام بآذانهم ، لا يكاد هذا الكلام يتجاوز آذانهم إلى عقولهم ، فضلا عن أن يتجاوزها إلى قلوبهم وإلى ضمائرهم ، فيثير فيها التصديق أو ما يشبه التصديق ؛ فلم يكن زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر من رعاع تيم ولا من دهمائها ، بل كان فى الذؤابة الرفيعة منها ، وكان أقرب إليها من عمر بن عبيد الله لأنه ابن خالها . ثم ليس إلى المقارنة بين مصعب وعمر بن عبيد الله من سبيل ؛ لأن عمر بن عبيد الله لم يكن إلا والياً من ولاة مصعب وقائداً من قواده . ولكن الغريب أن الناس لم يجادلوها فى شىء من هذا كله ، وإنما

سمعوا وأذعنوا . ولعلهم — حين قالت لهم : وأردت ألا أتزوج بعده — فهموا عنها كل ما كانت تريد أن تقول . وكان ما تريد أن تقول واضحاً حقاً ، فقد كانت تريد أن تقول : لقد كنتُ أجلس إلى زوجى عمر بن عبيد الله فأنغمس فى حياة حلوة هادئة وأنسى نفسى وما حولى من الناس والأشياء ، وأنعم بما لم أكن أقدر أنه سيتاح لى فى يوم من الأيام . وإذا أنا قد نقلت من حياة إلى حياة ، ومن عالم إلى عالم ، لا أدرى كيف كان ذلك ، ولا أستطيع أن أصور لنفسى ولا لغيرى كيف كان هذا الانتقال . ولكنى أذكر أن زوجى لم يكد يأخذنى بين ذراعيه حتى انتقلت إلى جو غريب من اللذة والبهجة والغبطة والمتاع ، وإذا أنا أغرق فى هذا الجو وأنسى نفسى قليلا قليلا ، وإذا أنا أفنى فى هذا الجو فأصبح جُزْءًا من أجزائه ، أو أصبح حظاً مفرقاً فى كل عنصر من عناصره . وأنا لا أسأل نفسى كيف انتقلت إلى هذا الجو ، ولا أسأل نفسى كيف أعود من هذا الجو ، وإنما أستسلم له كما يستسلم الغريق بعد أن يبذل آخر جهده فى المقاومة ، ويبقى لى مع ذلك شعور واحد ، وهو أنى مع زوجى وأنه قد سحرنى وبهرنى واضطرنى إلى هذا الاستسلام الذى انتهيت إليه .

ومهما يكن من شىء فقد مرت الأيام فذهبت بحزن عائشة

وجزعها ، ولكنها لم تفكر فى الزواج بعد عمر بن عبيد الله ، وقد خطبها غير واحد من أشراف قريش ، فردتهم جميعاً مخذولين مدحورين . ومن الغريب أن الحارث بن خالد لم يكن من الذين تقدموا لخطبتها ، وقد قيل له : ما يمنعك الآن منها ؟ ! فقال : لا يتحدث والله رجال من قريش بأن نسيبى بها كان لشىء من الباطل .

وفرغت عائشة بعد موت زوجها للغزل والغناء ؛ فكانت تقيم بمكة عاماً وبالمدينة عاماً آخر . وكان همها كله أن تنفق نشاطها فى لقاء الغزلين والمغنين . فتلهو بهذه المعابثات التى كانت تملأ قلبها غبطة وحبوراً . وتنعم بهذه الأشعار التى كانت تصيب من قلبها مواقع الرضا والابتهاج ، وتستمتع بهذه الأصوات العذبة التى كانت تقع فى أذنها موقع الموسيقى . حتى إذا خلت إلى نفسها فى ساعة من ساعات الليل . أو فى لحظة من لحظات النهار أخذت تعيد فى نفسها ما سمعت من حديث وغناء ، وما رأت من حركة ونشاط ، وأخذت تتعمقه وتستخرج منه صوراً ومعانى وعواطف وخواطر لا تحصى ولا تستقصى . ولكنها تنسيها نفسها وتنسيها كل شىء وكل إنسان ، وتنتهى بها إلى عالم غريب هو أحب إليها ألف مرة ومرّة من هذا العالم الذى تعيش فيه .

وكانت تخرج إلى الطائف ، قرية جميلة قريبة من مكة

تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، تحيط بها الكروم والنخيل والحدائق الغناء ، فكأنها فى هذه الصحراء المجدبة ، الابتسامة العذبة فى الوجه المظلم الكئيب . كانت تخرج إلى الطائف ، وكان لها فى الطائف قصر عظيم كانت تجلس فيه مع الأصيل فتنظر إلى الرماة وهم يتناضلون بين يديها ، أو تسأل عن الغادى والرائح تلتمس فيهم الشاعر والمغنى ، فإنها لجالسة فيه ذات يوم وإذا بالنميرى الشاعر يمر بها ؛ فتسأل عنه ، فينسبونه لها ، فتقول : ائتونى به . فإذا جاءها قالت له : أنشدنى مما قلت فى زينب [1] فيمتنع ويقول : ابنة عمى وقد صارت عظاماً بالية . فتقول له : أقسمتُ عليك لما فعلت . فينشدها قوله :

نزلن بفخ ثم رحن عشية ، يُلَبِّين للرحمن معتمرات
يُخبِّئن أطراف الأكف من التقى ويخرجن شطر الليل معتجرات
ولما رأت ركب النميرى أعرضت وكن من ان يلقينه حذرات
تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت
به زينب فى نسوة خفرات

فتقول : ما قلت إلا جميلا ، ولا وصفت إلا كرماً وطيباً ، وتقى وديناً ، أعطوه ألف درهم . فلما كان فى مثل هذا اليوم من

---

(١) زينب بنت يوسف ، أخت الحجاج الثقفى .

الأسبوع الذى بعده تعرّض لها ، فقالت : علىّ به . فقالت أنشدنى من شعرك فى زينب ، فقال : أو أنشدك من قول الحارث فيك ؟ فوثب مواليها عليه يردن إيذاءه ، فقالت لهم : دعوه . فإنه أراد أن يستقيد لابنة عمه . وقالت له : هات . فأنشدها :

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بلبك مطلع الشرق
ما صبحت أحداً برؤيتها إلا غدا بكواكب الطلق

قالت : والله ما ذكر إلا جميلا ! ذكر أننى إذا صبحتُ زوجاً بوجهى غدا بكواكب الطلق ، وأنى غدوت مع أمير تزوجنى إلى الشرق ، أعطوه ألف درهم واكسوه حلتين . ولا تعد لإتياننا يا نميرى .

وتمضى الأيام على ذلك ، إقامة فى مكة عاماً ، وإقامة فى المدينة عاماً آخر . وخروج إلى الطائف بين الحين والحين ، وتلمس للغزلين والمغنين دائماً ، وأداء للحج كل عام ، وأداء للعمرة ما واتت الفرصة وسنحت الظروف . وتقبل عائشة من المدينة ذات يوم تريد الحج ، فلا تكاد تبلغ مكة حتى تعلم أن الوليد بن عبد الملك ذلك الذى تزوج بنتها نفيسة ، وأصبح خليفة للمسلمين قد أقبل على مكة ، فتدخل عليه وتقول له : يا أمير المؤمنين ! مر لى بأعوان يكونون معى فى الحج ، فيأمر لها

بما تريد ، وتحج ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل ، وتراها سكينة بنت الحسين – وكانت قد أقبلت تحج – وتراها أحسن منها آلة وثقلا وتسمع حاديها يقول :

عائش يا ذات البغال الستين   لا زلت ما عشت كذا تحجين

فيشق ذلك على سكينة ، وينزل حاديها فيقول :

عائش هذى ضرة تشكوك   لولا أبوها ما اهتدى أبوك

وترى عائشة إكراماً لأبيها الحسين وجدها النبي أن ترضيها ، فتأمر حاديها أن يكف فيكف . ولكن عائشة تسعى وتسعى كأنما تعرض مواكبها الرائعة على الناس ، ويراها عروة بن الزبير وهى تتصدى للغزلين وتعابثهم فيقول لها :

عائش ياذات البغال الستين   أكل عام هكذا تحجين ؟ !

ولكنها لاتبالى بهذا الإنكار، وتقول له فى تحد واحتقار : نعم يا عرّية ! فتقدّم إن شئت، فيكف عنها . ثم يلقاها عمر بن أبى ربيعة وهى تسير على بغلة لها ، فيقول لها : قفى حتى أسمعك ما قلتُ فيك . قالت : أو قد فعلتَ يا فاسق ؟ ! قال : نعم . فوقفت فأنشدها :

يا ربة البغلة الشهباء هل لك فى
أن تنشرى ميتاً ، لا ترهقى حرجا (١)
قالت : بدائك مت أو عش تعالجه
فإن تقدنا فقد عنيتنا حججا (٢)
حتى لو اسطيع مما قد فعلت بنا
أكلت لحمك من غيظ وما نضجا

فقالت : لا ورب هذه البنية ، ما عنيتنا طرفة عين قط . ثم قالت لبغلتها : عدس ! (٣) . وسارت . ثم تنصرف إلى المدينة فيقول فيها :

إن من تهوى مع الفجر ظعن ... للهوى والقلب متباع الوطن (٤)
بانت الشمس وكانت كلما ... ذكرت للقلب عاودت ددن (٥)
نظرت عينى إليها نظرة ... مهبط الحجاج من بطن يمن

---

(١) لا ترهقى حرجا : أى لا تحمليه . ولا تكلفيه أكثر مما هو به . كقوله تعالى : لا ترهقنى من أمرى عسرا .
(٢) فإن تقدنا ، القود : القصاص . والمراد فإن ترد القصاص منا على هذا الهجر فقد عنيتنا وجشمتنا أعواماً طوالا .
(٣) عدس : كلمة تزجر بها البغال .
(٤) متباع الوطن : مفعال من أتبعه أى قفاه .
(٥) الددن : اللعب .

في عثانين من الحج ثكن (١) موهناً تمشي بها بغلتها
ربما يعجب بالشيء الحسن فرآها القلب لا شكل لها

وتمضي أعوام وأعوام ويموت الحارث بن خالد ، ثم يموت عمر بن أبي ربيعة وتجزع عائشة عليهما أشد الجزع ، وتهلع أكبر الهلع ، وتنصرف عن مكة وعن الحج زاهدة فيهما أعواماً . ثم تصبح ذات يوم ضيقة الصدر كئيبة النفس فتهيىء نفسها للخروج إلى مكة ، تلتمس راحة النفس في تعب الجسم ، وتزور هذه القرية التي أنفقت فيها أياماً كانت خير أيامها ، وتلم بهذه الربوع التي ذاقت فيها أطيب ما ذاقت في الحياة من لذة قوية نقية طاهرة بريئة من كل إثم .

وتنحدر عائشة إلى مكة ، وتسير أمامها وهي تحاول أن تعيد إليها نفسها النافرة ، وترد إليها قلبها الجامح ، وترجع إليها عقلها المضطرب المشرد ، وتستجمع كل ما تستطيع أن تستجمعه من قوة الحس والشعور ، لتستمتع بالحياة القوية الخصبة في هذه القرية الحبيبة إلى نفسها ، الكريمة على قلبها ، ولتأخذ منها

---

(١) عثانين : جمع عثنون وهو اللحية . أي تمشي مع رجال ذي عثانين موقرين من الحج ثكن : أي مجتمعين . والثكنة الجماعة من الناس والبهائم وغيرها .

بأعظم حظ ممكن من المتاع تجعله زاداً لها وذخراً حين ترجع إلى الطائف . وهى تحاول أن تملأ عينيها مما ترى ، وتملأ أذنيها مما تسمع ، وتملأ نفسها وقلبها مما تجد ، ولكنها تنظر فلا ترى إلا الطريق تمتد أمامها ، وإلا شباباً وأطفالا قد نبتوا فى مكة كما ينبت العشب فى الأرض ، لا تدرى كيف جاءوا . وهم يسعون متفرقين ، منهم المقبل على المسجد ومنهم المنصرف عنه ، بعضهم مغرق فى الصمت ، وبعضهم يتحدث إلى رفيق . وفتيات ونساء يسعين رشيقات رائعات الجمال ، وشبان ورجال ينظرون إليهن . وإنها لتمد سمعها فلا تسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التى تأتيها من هذه الحركات وإنها لتمد نفسها كلها فلا تحس إلا حياة هامدة جامدة راكدة راقدة ، تأتيها مما ترى وما تسمع . وهى تتهيأ للمضى أمامها . وها هى ذى تمضى وتمضى تريد أن تبلغ الأماكن المقدسة . لعلها تجلس إليها ، وتذكر عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد ، فكثيراً ما لقيتهما عندها ، ولعل الذكرى أن تملأ نفسها وقلبها ، ولعل الذكرى أن تنسيها نفس الذكرى ، وأن تخيل إليها أن الذكرى حاضرة لم تمض ، ولم تنقض أيامها . ولعلها تعتقد أنها قد أقبلت لتزور ابن أبى ربيعة وتزور الحارث ابن خالد ، ولعلها تسمع صوتيهما يأتيانها من بعيد ، يخترقان إليها حجب الموت ، وينفذان إليها من طُرُق الحياة ، ولعلها تنتظر

أن يقبلا عليها ، وأن يرحبا بها ، وأن يتغزلا فيها ، ولكنها تنظر فلا ترى شيئاً ، وتسمع فلا ينتهى إليها صوت . هنالك تثوب إلى نفسها ، وتستأنف سيرها ، وقد مثلت فصلا من حياتها الأولى ، ووجدت فى التمثيل مثل ما كانت تجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

وهى تستأنف سيرها فتمضى أمامها حتى تبلغ الطريق إلى المسجد الحرام فتقبل عليه ، لتجلس إلى بعض الغزلين الذين أقبلوا يترصدون النساء ، أو لتجلس إلى بعض النساء اللائى أقبلن يترصدن الغزلين ، وكانت تقدر هذا كله ، وتقدر لنفسها المتاع بهذا كله ، وهى تمضى أمامها مقبلة على المسجد الحرام ، ولكن ماذا ترى ؟ وأين هى ؟ وأين الغزلون ؟ وأين النساء ؟ إنها لتنظر فإذا المسجد الحرام كما عهدته ، ولكنه خال من الغزلين ومن النساء ، وهؤلاء قوم قد انتشروا فيه . بعضهم يصلى وبعضهم يذكر الله . أين الغزلون ؟ لقد كانوا يجلسون فى هذا المكان، وكانوا يترصدون النساء إذا دخلن من هذا الباب . وأين النساء ؟ لقد كنّ يجلسن فى هذا المكان . وكن يترصدن الغزلين إذا دخلوا من هذا الباب . أين الغزلون ؟ وأين النساء ؟ إنها لا ترى أحداً ولا تجد لأحد منهم أثراً ، وترى شباناً لم تألفهم ، ورجالا لم ترهم من قبل . أتراها أخطأت المسجد الحرام ؟ ومع ذلك فهى

تعرفه كما تعرف نفسها ، وتستطيع أن تمشي فيه ، وتهتدى إلى جميع أماكنه المقدسة دون أن تفتح عينها ، لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهديها الطريق . أين الغزلون ؟ وأين النساء ؟ لقد سلكت إلى المسجد الحرام الطريق التى سلكتها ألف مرة ومرة ، فليست تشك فى أنها قد بلغته . وبلغته هو دون غيره من المساجد فما أصابه بعد ابن أبى ربيعة ؟ وأين غيره من الغزلين ؟ الذين كانوا يملئون جنباته . إنها لتريد أن تسأل فتجد حياء فى نفسها من السؤال . ولكنها تطيل الوقوف ، وتطيل النظر عن يمين وشمال ، وتطيل النظر من أمام ومن وراء ، حتى ليخيل إليها ، وإلى من كان يراها من الناس ، أنها بلهاء قد فقدت الصواب . ثم لا تملك نفسها وإذا هى تسأل عن المسجد الحرام ، وعن الغزلين . وإذا هى تسمع ، ويا شر ما تسمع ، تسمع أنها قد بلغت المسجد الحرام ، وأن الغزلين قد كرت عليهم الأيام ومرت بهم الليالى ، فأقلهم قد أقعدته الشيخوخة ، والكثرة الكثيرة منهم قد اختطفها الموت . ماذا تسمع ؟ قد اختطف الموت أكثر الغزلين ؟ وماذا بقى إذن فى مكة ؟ أو ماذا جاءت ترى فى مكة ؟ . مات أكثر الغزلين ؟ يا للحزن والأسى ! ويا للوعة والحسرة ، ويا لليأس والقنوط ! لقد عاش جيل من النساء بهؤلاء الغزلين ولهؤلاء الغزلين ، فكل هذه الحياة ، وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان حول

هؤلاء الغزلين من جد وهزل ومن لذة وألم ومن حب وبغض ومن أمل ويأس ومن مكر ونصح ومن خداع وإخلاص ، كل هذا يذهب فى أعوام قصار لا تكاد تتجاوز أصابع اليدين ؟ ! كأن شيئاً من هذا لم يكن ؟ ! وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته حياة هؤلاء الغزلين من العواطف ! وكأن شفة لم تبتسم لما أقدم عليه هؤلاء الغزلون من عبث وكأن عيناً لم تبك لما أصاب هؤلاء الغزلين من ألم ! ! يا للحزن اللاذع ويا للألم الممض ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد مات الغزلون وأصبحوا أحاديث كغيرهم من الناس الذين أصبحوا أحاديث . وتعود عائشة إلى الطائف فتتحدث إلى صديقاتها فى هذا كله حديثاً مظلماً حزيناً تتردد فيه ذكريات حائرة مضطربة كما تتردد الطير التى تألف الظلمة فى البيت المظلم الحزين . وهى تحاول أن تلتمس الغزلين فى نفسها ، وتجتهد ما تستطيع فى أن تستحضر ما بقى من صورهم ، وأن تثبته خشية أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل . وهى تتمنى لو عصف بها الموت فارتحلت إلى حيث سبقها الغزلون ، فما فى الحياة بعدهم من طائل ولا غناء .

٢٥

وأطرق القاص حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقة طويلة ، حتى همّ سامعوه أن يتفرقوا وقد ظنوا أنه لن يقول شيئاً ، ولكنه رفع إليهم رأسه وقال لهم : أرأيتم إلى عثمان بن عفان وإلى اقتراحه هذا الخطير الذى اقترحه ذات يوم على أهل المدينة ففرحوا به حين سمعوه ، وابتهجوا له ابتهاجاً عظيما ؟ لولا هذا الاقتراح ما جدت فى بلاد العرب ولا فى غير بلاد العرب من الأقاليم المفتوحة هذه الإقطاعات الكبيرة الضخمة ، وهذه الضياع الواسعة العريضة . وما نشأ عن ذلك أن ظهرت فى الإسلام هذه الطبقة الجديدة من الناس ، طبقة البلوتقراطية التى تمتاز إلى أرستقراطيتها التى تأتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء ، وكثرة الأتباع أيضاً . ولولا هذا الاقتراح ما اجتلب الذين اشتروا الأرض فى بلاد العرب عامة وفى الحجاز خاصة هذه الطوائف من الرقيق ، وأكثروا من اجتلابها ، وما نشأ عن ذلك أن ظهرت فى الحجاز هذه الطبقة من الأرستقراطية الفارغة التى لا تعمل شيئاً ، وإنما يعمل لها ما جلبت من الرقيق ، والتى تنفق

وقتها فى فنون اللهو والعبث والمجون . ولولا هذا الاقتراح ما جلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، وما نشأ عن ذلك أن كان الترف والتبطل وهذه الفنون التى تنشأ عن الترف والتبطل من الغناء والإيقاع والرقص والغزل . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة : ألسنا مدينين لعثمان بن عفان بظهور الغزلين والمغنين ؟ ولو لم يظهر الغزلون والمغنون أكنا نسمع عن عائشة بنت طلحة ؟ !



مصر

الثمن ٣٠ قرشا

دار المعارف بمصر

تقدم لأطفال العروبة

بين الرابعة والثامنة من عمرهم

مجموعة

روضة الطفل

صدر منها حتى الآن

١ — أرنبو والكنز .	٧ — انتصار فيروزة .
٢ — كتكت المدهش .	٨ — حسن والذئب .
٣ — عيد ميلاد فلة .	٩ — زحلف الشجاع .
٤ — فرفر والجرس .	١٠ — حبة القمح .
٥ — ذيل الفأر .	١١ — ذكاء سمسمة .
٦ — البطة السوداء .	١٢ — الغراب المكار .
	(تحت الطبع)

ثمن النسخة ٧ قروش